سلسلة الأربعون حديثا

الأصنام الخفيَّة

(بحث العجب والكبر من كتاب الأربعون حديثاً للإمام الخميني)

مركز باء للدراسات

تمهيد

ألّف الإمام الخميني قدس سره كتاباً عظيم الشأن تحت عنوان «الأربعون حديثاً» قام فيه بشرح أربعين حديثاً مروياً عن أهل البيت عليهم السلام تيمناً بالحديث المشهور «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً».

وقد ضمن الإمام هذا الكتاب مجموعة كبيرة من المبادئ والأصول الأخلاقية السلوكية التي تشكل الإطار العام لرؤيته الأخلاقية والعرفانية العملية والنظرية.

وعندما ألف الإمام كتابه هذا لم يكن بصدد تقديمه كمتن تدريسي منهجي، بل اعتمد التركيز على نفس الحديث محاولاً سبر أغواره والاستفادة منه، بمعزل عن أي شيء آخر، فاعتبر الحديث المحور الذي ينبغي أن تدور حوله الدراسة والبحث. وقد أثمر هذا النهج عن نتائج وكشوفات علمية هائلة لا زالت حتى اليوم ملهمة لكل الباحثين عن الحقائق العرفانية العملية.

ولازال كل من يطالع هذا الكتاب يعتبره أفضل ما قدم في هذا المجال. فهو بحق أنفع كتاب في تهذيب النفوس والسير إلى الله تعالى.

أمام هذه الموقعية المميزة «للأربعون حديثاً» شعر مركز باء للدراسات بالمسؤولية في تقديم موضوعاته وأفكاره بأسلوب منهجي تعليمي يسهل على المعلم والطالب التعرف إلى مطالبه ويجعل عملية الاستفادة منه ممتعة وشيقة، فقام بإخراج الأفكار الأساسية بقوالب بيانية حديثة تعتمد على الأمور التالية:

١ـ المحافظة التامة على نص الإمام مع تعديلات لغوية طفيفة بالرجوع إلى النص الأصلي.

٢ـ تنظيم المطالب وفق دروس منهجية مترابطة.

٣ـ استخراج أهم الوصايا والإرشادات العملية وتسليط الضوء عليها.

٤ـ إضافة بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بالموضوع لمزيد من الشواهد والإيضاحات.

٥ـ توضيحات مختصرة من قبلنا ولا شك بأن أي خطأ في التوضيح يرجع إلينا وليس إلى النص الأصلي.

وسوف تكون هذه السلسلة متضمنة للمواضيع والأبحاث الأخلاقية التي عرضت في «الأربعون» على أمل أن يكون للأبحاث النظرية العرفانية الموجودة فيه فرصة أخرى.

يود مركز باء للدراسات أن يتقدم بالشكر إلى فضيلة الشيخ فادي ناصر وفضيلة الشيخ حسين قازان على قيامهما بهذه المهمة على أتم وجه، سائلين المولى تعالى أن يوفقنا لبيان الأبعاد العظيمة لنهج الإمام الخميني قدس سره.

الناشر

القسم الأوّل

العُجب

عن علي بن سويد عن الإمام أبي الحسن عليه السلام قال: «سألته عن العجب الذي يفسد العمل فقال: العجب درجات منها أن يُزين للعبد عمله، فيراه حسناً، فيعجبه، ويحسب أنه يحسن صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنَّ على الله عز وجل ولله عليه فيه المن»[1].

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

١ـ معنى العجب

من الأمراض التي تصيب القلب فتفسد الأعمال وتمحق الدين، وتسلط الشيطان على الإنسان رذيلة العجب. وفي الأحاديث الشريفة: «من دخله العجب هلك»[١] وهو تعظيم العمل الصالح واستكثاره، والخروج عن حد التقصير اتجاه الله سبحانه، حتى يصل المرء إلى درجة يمن بإيمانه وأعماله الصالحة على رب العباد، وبعض الناس ونتيجة تأصل هذا المرض في قلوبهم يعجبون بكفرهم وخصالهم القبيحة، كما سوف يتبين الآن.

العجب عبارة ـ حسب ما ذكر العلماء رضوان الله عليهم ـ عن: «تعظيم العمل الصالح واستكثاره والسرور والابتهاج به، والتغنج والدلال بواسطته، واعتبار الإنسان نفسه غير مقصر».

وأما السرور بالعمل مع التواضع والخضوع لله تعالى وشكره على هذا التوفيق، وطلب المزيد منه، فإنه ليس بعجب بل هو أمر ممدوح.[٢]

ينقل المحدث العظيم مولانا العلامة المجلسي طاب ثراه، عن المحقق الخبير والعالم الكبير الشيخ بهاء الدين العاملي رضوان الله عليه أنه قال:

«لا ريب في أن من عمل أعمالاً صالحة من صيام الأيام، وقيام الليالي، وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاج، فإن كان من حيث كونها عطية من الله له، ونعمة منه تعالى عليه، وكان مع ذلك خائفاً من نقصها، شفيقاً من زوالها، طالباً من الله الازدياد منها، لم يكن ذلك الابتهاج عجباً.

---

(١) وسائل الشيعة ـ المجلد الأول ـ الباب الثالث.

(٢) جامع السعادات ج١ ـ ص٨، المحجة البيضاء ج٦ ـ ص٧.

وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها، ورأى نفسه خارجاً عن حد التقصير. وصار كأنه يمن على الله سبحانه بسببها فذلك هو العجب».[1]

أقول، وأنا الفقير: إن تفسير العجب بالصورة التي ذكروها صحيح، ولكن يجب اعتبار العمل (الذي يعجب المرء به) أعم من العمل الباطني والظاهري، القلبي والشكلي، وكذلك أعم من العمل القبيح والعمل الحسن. وذلك لأن العجب مثلما يدخل على أعمال الجوارح، يدخل أيضاً على أعمال الجوانح فيفسدها.

وكما أن صاحب الفضيلة الحسنة يعجب بخصاله، كذلك يكون ذو العمل الشنيع، حيث يصل أهل الكفر والنفاق، والمشركون والملحدون وذوو الأخلاق القبيحة، وأصحاب الملكات الخبيثة، وأهل الذنب والعصيان، أحياناً إلى درجة الإعجاب بغرورهم وزندقتهم تلك، أو بسيئات أخلاقهم وموبقات أعمالهم، ويسرون بها. ويرون بها أنفسهم من ذوي الأرواح الحرة، الخارجة عن التقليد وغير المعقدة بالأوهام والخرافات، ويرون أنفسهم أولي شهامة ورجولة، فيتصورون أن الإيمان بالله من الأوهام، وأن التعبد بالشرائع من ضعف العقل وصغره، ويرون أن الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، هي من ضعف النفس والمسكنة، ويحسبون أن الأعمال الحسنة والمناسك والعبادات هي من ضعف الإدراك ونقصان الإحساس، ويرون أن أنفسهم تستحق المدح والثناء، بسبب الروح الحرة التي لا تعتقد بالخرافات ولا تبالي بالشرائع.

---

(١) مرآة العقول ـ ج١ ـ ص٢١٨.

لقد تأصلت في قلوبهم الخصال القبيحة والسيئة وأصبحوا يأنسون بها، وبها امتلأت أعينهم وآذانهم فرأوها حسنة، وتصوروها كمالاً مثلما وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث الشريف حيث قال عليه السلام:

«العجب درجات، منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه، ويحسب أنه يحسن صنعاً».

وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...﴾[1].

وكما يقول عليه السلام في الحديث المتقدم: «... وحسب أنه يحسن صنعاً...»[2] حيث يشير إلى قوله عز من قائل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾.[3]

تلك المجموعة من الناس الذين هم في الواقع جهلة ويحسبون أنفسهم علماء، أولئك هم أكثر الناس مسكنة وأسوأ الخلائق حظاً، أولئك يعجز أطباء النفوس عن علاجهم، ولا تؤثر فيهم الدعوة والنصيحة، بل قد تعطي أحياناً نتيجة عكسية.

أولئك لا يعون الدليل، بل يسدون أسماعهم عن هداية الأنبياء، وبرهان الحكماء، ومواعظ العلماء.

ولا بد من الالتفات إلى أن السرور الخالي من العجب والذي اعتبروه (العلماء) من الصفات الممدوحة، إنما يلاحظ بحسب نوعه.

---

(١) سورة فاطر ـ الآية ٨.

(٢) سورة الكهف ـ الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥.

(٣) سورة الكهف ـ الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥.

٢ـ درجات العجب ومراتبه

تكمن خطورة الرذائل المعنوية والأمراض القلبية في خفائها وتعدد درجاتها ومراتبها، حيث يظن المرء أحياناً أنه سالم من إحداها، ولكن بعد التأمل والبحث نجد أنه مبتلى بمرتبة منها ولكن خفيت عليه لأسباب عديدة، وهنا تأتي ضرورة التعرف على درجات العجب، وذلك حتى يتم استئصاله والوقاية منه، وللعجب ست درجات، لكل واحدة منها مراتب عديدة سوف نتعرف عليها فيما يلي.

اعلم أن للعجب كما وردت الإشارة إليه في الحديث الشريف ست درجات:

١ـ الدرجة الأولى: العجب بالإيمان والمعارف الحقة.

٢ـ الدرجة الثانية: العجب بالكفر والعقائد الباطلة.

٣ـ الدرجة الثالثة: العجب بالملكات والصفات الحميدة.

٤ـ الدرجة الرابعة: العجب بسيئات الأخلاق وباطل الملكات.

٥ـ الدرجة الخامسة: العجب بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة.

٦ـ الدرجة السادسة: العجب بالأعمال القبيحة والأفعال السيئة.

واعلم أن لكل واحدة من الدرجات الآنفة الذكر مراتب يكون بعضها واضحاً وبيناً، ويمكن للإنسان الإطلاع بأقل تنبه والتفات. وبعضها الآخر دقيق وخفي للغاية بحيث لا يمكن للإنسان أن يدركها ما لم يفتش ويدقق بصورة صحيحة. كما أن بعض مراتبها أشد وأصعب وأكثر تدميراً من بعضها الآخر.

وما سنتعرض إليه هو مراتب العجب في درجة الخصال الحسنة.

١ـ المرتبة الأولى:

وهي أشد المراتب وأكثرها إهلاكاً، حيث تحصل في الإنسان بسبب شدة العجب، حالة يمن معها في قلبه بإيمانه أو خصاله الحميدة الأخرى، على ولي نعمته ومالك الملوك، فيتخيل أن الساحة الإلهية قد اتسعت بسبب إيمانه، أو أن دين الله قد اكتسب رونقاً بذلك أو أنه بترويجه للشريعة، أو بإرشاده وهدايته، أو بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، أو بإقامته الحدود، أو بمحرابه ومنبره قد أضفى على دين الله بهاءً جديداً، أو أنه بحضوره جماعة المسلمين، أو بإقامة مجالس التعزية لأبي عبد الله الحسين عليه السلام قد أضفى على الدين جلالاً، لذلك يمن على الله وعلى سيد المظلومين وعلى الرسول ﷺ، وإن لم يظهر لأحد هذا المعنى، إلا أنه يمن في قلبه.

ومن هنا، ومن هذا الباب بالذات تنشأ المنة على عباد الله في الأمور الدينية، كأن يمن على الضعفاء والفقراء بإعطائهم الصدقات الواجبة والمستحبة ومساعدتهم وأحياناً تكون هذه المنة خافية حتى على الإنسان نفسه. ومن الواضح والمعروف عدم إمكان امتنان العبد على رب العباد، وإنما يمن تعالى على الناس جميعاً.

٢ـ المرتبة الثانية

وهي التي يتدلل فيها الإنسان ويتغنج بواسطة العجب على الله تعالى وهذه غير المنة، ولو أن البعض لم يفرق بينهما.

إن صاحب هذا المقام يرى نفسه محبوباً لله تعالى، ويرى نفسه في سلك المقربين والسابقين، وإذا جيء باسم ولي من أولياء الله أو جرى حديث عن

المحبوبين والمحبين أو السالك المجذوب، اعتقد ف قلبه أنه من أولئك، وقد يبدي التواضع رياء وهو خلاف ذلك أو أنه لكي يثبت ذلك المقام لنفسه، ينفيه عن نفسه بصورة تستلزم الإثبات.

وإذا ما ابتلاه الله تعالى ببلاء، راح يعلن أن «البلاء للولاء».

إن مدعي الإرشاد من العرفاء والمتصوفة وأهل السلوك والرياضة أقرب إلى هذا الخطر من سائر الناس.

٣ـ المرتبة الثالثة

أن يرى الإنسان نفسه وبواسطة الإيمان أو الملكات أو الأعمال دائناً لله وأنه بذلك يكون مستحقاً للثواب، ويرى واجباً على الله أن يجعله عزيزاً في هذا العالم، ومن أصحاب المقامات في الآخرة، ويرى نفسه مؤمناً تقياً وطاهراً، وكلما جاء ذكر المؤمنين بالغيب قال في نفسه «حتى لو عاملني الله بالعدل فإني أستحق الثواب والأجر» بل يتعدى بعضهم حدود القبح والوقاحة ويصرح بهذا الكلام.

وإذا ما أصابه بلاء وصادفه مالاً يرغب، فإنه يعترض على الله في قلبه، ويتعجب من أفعال الله العادل، حيث يبتلي المؤمن الطاهر، ويرزق المنافق، ويغضب في باطنه على الله تبارك و تعالى، ولكنه يظهر الرضا في الظاهر، ويصب غضبه على ولي نعمته، ويظهر الرضا بالقضاء أمام الخلق. وعندما يسمع أن الله يبتلي المؤمنين في هذه الدنيا، يسلّي نفسه بذلك في قلبه، ولا يدري بأن المنافقين المبتلين كثيرون أيضاً، وليس كل مبتل مؤمناً.

٤ـ المرتبة الرابعة

هي أن يرى الإنسان نفسه متميزاً عن سائر الناس وأفضل منهم بالإيمان ومتميزاً عن المؤمنين بكمال الإيمان، وبالأوصاف الحسنة عن غير المتصفين بها، وبالعمل الواجب وترك المحرم عما يقابل ذلك، كما أنه في عمل المستحبات والتزام الجمعة والجماعات والمناسك الأخرى وترك المكروهات يرى نفسه أكمل من عامة الناس، وأن له امتيازاً عليهم، فيثق بنفسه وأعماله، ويرى سائر الخلق زبداً ناقصين، وينظر إلى سائر الناس بعين الاحتقار، ويطعن بقلبه أو بلسانه في عباد الله ويعيبهم، ويبعد كل شخص بصورة ما عن ساحة رحمة الله، ويجعل الرحمة خالصة له ولأمثاله.

ومثل هذا الإنسان يصل إلى درجة بحيث يناقش كل عمل صالح يراه من الناس، ويخدشه بقلبه على نحو ما، ويرى أعماله خالصة من ذلك الاعتراض والنقاش ولا يرى الأعمال الحسنة من الناس شيئاً، ولكن إذا صدرت هذه الأعمال نفسها عنه يراها عظيمة. إنه يعرف جيداً عيوب الناس، وهو غافل عن عيوبه.

هذه علامات العجب، وإن كان الإنسان نفسه قد يكون غافلاً عنها. وللعجب درجات أخرى لم أذكر بعضها، وأكون غافلاً عن بعضها الآخر حتماً.

٣ـ منشأ رذيلة العُجُب

لكل شيء أساس وعماد، فكما أن أساس الشجرة البذرة والجذور، فكذلك هي رذيلة العجب، فإنها تنشأ من حب النفس والأنانية، التي هي أم المفاسد والرذائل الأخلاقية، بل هي الصنم الأكبر الذي يحول بين قلب العبد وبارئه عز وجل. ولذلك جاء في الحديث الشريف: «أمُّ الأصنام صنم نفسك».

اعلم أن رذيلة العجب تنشأ من حب النفس، لأن الإنسان مفطور على حب الذات، فيكون أساس جميع الأخطاء والمعاصي الإنسانية والرذائل الأخلاقية، حب النفس.

ولهذا فإن الإنسان يرى أعماله الصغيرة والكبيرة، وبذلك يرى نفسه من الصالحين ومن خاصة الله ويرى نفسه مستحقاً للثناء، ومستوجباً للمدح على تلك الأعمال الحقيرة التافهة. بل ويحدث أحياناً أن تلوح لنظره قبائح أعماله حسنة وإذا ما رأى من غيره أعمالاً حسنة وإذا ما رأى من غيره أعمالاً أفضل وأعظم من أعماله فلا يعيرها أهمية، ويصف أعمال الناس الصالحة بالقبح، وأعماله السيئة القبيحة بالحسنة، يسيء الظن بخلق الله ولكنه يحسن الظن بنفسه، وبسبب حبه لنفسه يرى بعمله الصغير الممزوج بآلاف القذارات المبعدة عن الله، أن الله مدين له وأنه يستوجب منه الرحمة.

إني أحكمكم في هذا السؤال الذي أطرحه، وأريد منكم الجواب عليه بإنصاف ـ بعد إعمال الفكر والتأمل ـ ، والسؤال هو أنه إذا أخبركم الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، وهو الصادق المصدق، أنكم إذا عبدتم الله طوال

عمركم وأطعتم أوامره وتركتم شهوات النفس ورغباتها، أو تركتم عبادته وعملتم على خلاف توجيهاته سبحانه و تعالى، وعلى أساس رغبات النفس وشهواتها طيلة حياتكم. إذا أخبركم الرسول الأعظم ﷺ بأنكم سيان ـ في كلتا الحالتين ـ لن تختلف درجاتكم في الآخرة، إنكم على كل حال ناجون وستذهبون إلى الجنة وتؤمنون من العذاب، فلا فرق ـ حسب الفرض ـ بين أن تصلوا أو تزنوا، ولكن مع ذلك يكون رضا الله تعالى في عبادته والثناء عليه وحمده، والابتعاد عن الشهوات والرغبات النفسانية في هذا العالم، مع عدم الإثابة على الطاعة. إذا كان كذلك فهل كنتم تصبحون من أهل المعصية أو من أهل العبادة؟

هل كنتم تتركون الشهوات وتحرمون على أنفسكم اللذات النفسانية من أجل رضا الله تعالى والرغبة فيه، أو لا؟

هل كنتم باقين من المتوسلين إليه تعالى بالمستحبات والجمعة والجماعات؟ أو كنتم تغرقون في الشهوات وتلازمون اللهو واللعب والملاهي وغير ذلك؟

أجيبوا بإنصاف ودون تظاهر ورياء. إنني أعلن عن نفسي وعمَّن هو على شاكلتي بأنا كنا نصبح من أهل المعصية ونترك الطاعات، ونعمل بالشهوات النفسانية.

وبعدما تقدم نستنتج أن جميع أعمالنا من أجل اللذات النفسانية ومن أجل الاهتمام بالبطن والفرج. إننا عباد للبطن وعباد للشهوة. إن التي هي معراج

القرب إلى الله نؤديها قربة لنساء الجنة ولا علاقة لها بالقرب إلى الله، ولا علاقة لها بطاعة الأمر، وهي بعيدة آلاف الفراسخ عن رضا الله.

أيها المسكين الغافل عن المعارف الإلهية، يا من لا تفهم سوى إرادة شهوتك وغضبك. أنت المتوسل بالأذكار والأوراد والمستحبات والواجبات، والتارك للمكروهات والمحرمات، والمتخلق بالأخلاق الحسنة، والمتجنب لسيئات الأخلاق، ضع أعمالك أمام عين الإنصاف ألا تقوم بها لأجل الوصول إلى الشهوات النفسانية والجلوس على سرر مطعمة بالزبرجد، ومعانقة الضحوكات والدعوبات في الجنة، وارتداء الحرير والإستبرق، والسكن في القصور الفارهة الجميلة، والوصول إلى الأماني النفسية؟

أفينبغي أن تمن على الله وهي جميعاً لأجل النفس ومن أجل عبادتها، وتعدها عبادة لله؟ هل يختلف حالكم عن ذلك الأجير الذي ينجز عملاً من أجل الأجر، ثم يقول: إنني أنجزت ذلك العمل لأجل صاحب العمل فحسب؟ أفلا تكذبوه؟ ألستم كاذبين حينما تقولون: إننا نصلي تقرباً إلى الله تعالى؟ ألأجل التقرب إلى الله هذه الصلاة أم لأجل التقرب إلى نساء الجنة وإشباع الشهوة؟ أقولها صراحة، إن جميع عبادتنا هذه لهي من كبائر الذنوب عند العرفاء بالله وأولياء الله.

أيها العزيز كيف إن الصلاة التي تكون من أجل المرأة، سواء أكانت هذه المرأة في الدنيا أم في الجنة، لا تكون لله، الصلاة التي تكون من أجل الحصول على آمال الدنيا أو آمال الآخرة، لا علاقة لها بالله فلماذا إذاً تتدلل إلى هذا

الحد، وتنظر إلى عباد الله بعين الاحتقار، وتحسب نفسك من خواص الله تعالى؟

أيها المسكين! أنت بهذه الصلاة مستحق للعذاب ومستوجب لسلسلة طولها سبعون ذراعاً. فلماذا إذاً تحسب نفسك دائناً لله، وتهيئ لنفسك بهذا التدلل والعجب عذاباً آخر. اعمل الأعمال التي أمرت بها، واعلم أنها ليست لأجل الله، واعلم أن الله يدخلك الجنة بتفضله، وأن الله تعالى خفف عن عباده لضعفهم بالتجاوز عن نوع من الشرك، وأسدل عليه بغفرانه ورحمته حجاب ستره، فحاذر أن يتمزق هذا الحجاب، وليبق حجاب غفران الله على هذه السيئات التي أسميناها عبادة.

وإذا حدث لا سمح الله أن انطوت صفحتك هذه ورحلت من هذه الدنيا وجاءت صفحة العدل، فإن عفونة عبادتنا عندئذ لن تقل عن عفونة المعاصي والموبقات التي يرتكبها أهل المعصية.

فحينما تقول «إياك نعبد وإياك نستعين» فهل تراك تعبد الله، أم تعبد بطنك وفرجك؟ هل أنت تطلب الله أم الحور العين؟ هل تطلب العون من الله فقط؟ إن الشيء الذي لا يؤخذ بعين الاعتبار في الأعمال هو الله، وأنت إذا ذهبت إلى زيارة بيت الله فهل أن مقصدك ومقصودك هو الله، وأن مطلبك ومطلوبك هو صاحب البيت؟

وهل قلبك مترنم بقول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

أباحث أنت عن الله؟ أتطلب آثار جمال الله وجلاله؟ ألأجل سيد المظلومين تقيم العزاء؟ ألأجله عليه السلام تلطم على رأسك وصدرك أم لأجل الوصول إلى آمالك وأمانيك؟ إنما هي بطنك التي تدفعك لإقامة مجلس العزاء، وشهوة الظهور التي تدفعك للذهاب إلى صلاة الجماعة، وهوى النفس هو الذي يجرك إلى المناسك والعبادة؟

هذه أحوال عبادتنا، حيث أننا في كل شيء حتى في علاقتنا بالله عز وجل نرى القطب والمحور الذي ندور حوله هو أنفسنا وخدمتها، وتلبية حاجاتها.

«وما دام الإنسان قاصراً على نفسه وكماله المتوهم وجماله الموهوم فهو محجوب ومهجور من الجمال المطلق، والكمال الصرف، والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك إلى الله، بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها.

فكل سالك يسلك بخطوة الأنانية ورؤية النفس، ويطوي منازل السلوك في حجاب الأنانية وحب النفس تكون رياضته باطلة، ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (أم الأصنام صنم نفسك)»[1].

أيها المسكين! أنت في حضرة الله جل جلاله، وفي محضر الملائكة المقربين تعمل على خلاف رضا الله تعالى. والعبادة التي هي معراج القرب من الله، تؤديها لأجل النفس الأمارة بالسوء ولأجل الشيطان. وعندها لا تستحي أن تكذب في العبادة عدة أكاذيب في حضرة الرب والملائكة المقربين وتفتري عدة افتراءات، وتمن وتعجب وتتدلل أيضاً، ولا تخجل بعد كل ذلك!

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة ـ الباب الأول.

بماذا تختلف عبادتي هذه وعبادتك عن معصية أهل العصيان وأشدها الرياء؟ فالرياء شرك، وقبحه ناشئ من أنك لم تؤد العبادة لأجل الله، جميع عبادتنا شرك محض، ولا أثر فيها للخلوص والإخلاص، بل حتى أن رضا الله لا يشترك في الدافع إلى إنجاز هذه العبادة، فهي لأجل الشهوات وإعمار البطن والفرج فحسب.

أنت تظن أنك بهذه الأعمال المتفسخة المتعفنة الهزيلة الممزوجة بالرياء، وطلب السمعة وألف مصيبة أخرى التي تحول دون قبول العبادات كلها، تظن أنك بها تستحق الأجر من الحق تعالى. أو أنك أصبحت بها من المحبين والمحبوبين.

أيها المسكين الجاهل بأحوال المحبين! يا سيء الحظ الذي لم يطلع على قلوب المحبين، وعلى لهب شوقها تجاه الحق سبحانه، أيها المسكين الغافل عن حرقة المخلصين ونور أعمالهم! أو تظن أن أعمالهم أيضاً مثل أعمالي وأعمالك؟ أو تتوهم أن ميزة صلاة أمير المؤمنين عليه السلام عن صلاتنا أنه عليه السلام كان يمد «الضالين» أكثر، أو أن قراءته أصح أو أن سجوده أطول وأذكاره وأوراده أكثر؟ وأن ميزة ذلك الرجل العظيم في أنه كان يصلي عدة مئات من الركعات ليلياً؟ أو تظن أن مناجاة سيد الساجدين علي بن الحسين هي مثل مناجاتي ومناجاتك؟ أو أنه كان يتحرق ويتضرع ويتلظى بتلك الصورة من أجل الحور العين والكمثرى والرمان من نِعَم الجنة؟

أقسم به صلوات الله وسلامه عليه «وإنه قسم لو تعلمون عظيم» لو أن المحبين كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأرادوا أن يتفوهوا بكلمة «لا إله إلا الله» مرة واحدة بمثل ما كان يقوله أمير المؤمنين عليه السلام، لما استطاعوا. فكم أكون

تعيساً وشقياً أن لا أكون على خطى علي عليه السلام، وأنا من العارفين لمقام ولاية علي عليه السلام؟

أقسم بمقام علي بن أبي طالب عليه السلام لو أن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين ـ عدا الرسول الخاتم الذي يكون مولى علي وغيره ـ أرادوا أن يكبروا مرة، تكبيراً على غرار ما كان يكبر علي عليه السلام لما استطاعوا. وأما الوقوف على قلوبهم فلا يعرف أحد شيئاً إلا حملة تلك القلوب وأصحابها.

فيا أيها العزيز! لا تتباهى بقربك من الله ولا تبالغ في حبك له، أيها العارف، أيها الصوفي، أيها الحكيم، أيها المجاهد، أيها المرتاض، أيها الفقيه، أيها المؤمن، أيها المقدس، أيها المساكين المبتلون، يا سيئي الحظ المغلوبين بمكائد النفس وهواها أيها المساكين المبتلون بالآمال والأماني وحب النفس، كلكم مساكين، كلكم بعيدون فراسخ عن الإخلاص وعبادة الله، لا تحسنوا الظن بأنفسكم إلى هذا الحد، لا تتغنجوا ولا تتدللوا، اسألوا قلوبكم: هل تبحث عن الله أم تريد ذاتها؟ هل هي موحدة وتطلب الواحد أم مشركة وتعبد اثنين؟ فماذا يعني إذاً كل هذا العجب؟ ماذا يعني إذاً التعالي بالعمل إلى هذا الحد؟ وهو إذا صحت جميع أجزائه وشروطه وخلا من الرياء والشرك والعجب وباقي المفسدات، فهدفه الوصول إلى إشباع شهوات البطن والفرج، فما قيمة هذا العمل كي تنقله الملائكة؟ هذه الأعمال من القبائح والفجائع، وينبغي للإنسان أن يخجل منها ويسترها...

٤ـ كيف يغوي الشيطان الإنسان؟

ينبغي على الإنسان أن يحذر من رذيلة العجب التي تصيب القلب فتظلمه، وتكتب عليه الشقاء الأبدي، أشد من حذره على بدنه من السموم والجراثيم.

ولا بد من الإلتفات إلى حيل الشيطان وكيد النفس الأمارة بالسوء ومكرها حيث يستدرجانه شيئاً فشيئاً ومن دون أن يلتفت، فينقلانه من مرحلة إلى مرحلة، حتى يصل إلى درجة يمن فيها بإيمانه وأعماله وعبادته على الله تعالى. والعياذ بالله..

إن حيل الشيطان خفية دقيقة، فعلى غرار ما يتدرج أولي العجب بالمعاصي من مرتبة إلى أخرى حتى يصلوا إلى الكفر والزندقة. كذلك يتطور العجب الطاعات من العجب في الدرجة الناقصة إلى العجب في الدرجة الكاملة، فتصبح مكائد النفس والشيطان في القلب على أساس تخطيط ودراسة.

إن الشيطان لا يمكن أن يعهد إليكم مثلاً، أنتم المتقون الخائفون من الله، مهمة قتل النفس أو الزنا، أو أن يقترح على الشخص الذي يتمتع بالشرف وطهارة النفس، السرقة أو قطع الطريق، فلا يمكن أن يقول لك منذ البداية بأن مُنَ على الله بهذه الأعمال. أو ضع نفسك في زمرة المحبوبين والمحبين والمقربين من الحضرة الإلهية، وإنما يبدأ الأمر بالخطوة الأولى، ثم يشق طريقه في قلوبكم، فيدفعكم نحو الحرص الشديد على التزام المستحبات والأذكار والأوراد. وفي غضون ذلك يزين أمامكم بما يناسب حالكم، عملاً واحداً من أهل المعصية ويوحي لكم بأنكم بحكم الشرع والعقل أفضل من هذا الشخص،

وأن أعمالكم موجبة لنجاتكم، وأنكم بحمد الله طاهرون بعيدون عن المعاصي ومبرؤون منها.

فيتحصل من هذه الإيحاءات نتيجتان:

١ـ الأولى: سوء الظن بعباد الله.

٢ـ الثانية: العجب بالنفس.

وكلاهما من المهلكات، حيث يحرمان الإنسان من الكثير من الكمالات الحقيقية، وهما من معين المفاسد.

وعلى أي حال فإن النفس والشيطان، يدخلانكم في المرحة الأولى من العجب وقليلاً قليلاً ينقلانكم من هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى، ومن هذه الدرجة إلى درجة أكبر، إلى أن يصل الإنسان في النهاية إلى المقام الذي يمن فيه على ولي نعمته ومالك الملوك، بإيمانه أو أعماله ويصل عمله إلى أسفل الدرجات.

٥ـ مفاسد العجب وآثاره

قال نبي الله عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين كم من سراج أطفأته الريح وكم من عابد أفسده العجب.»

يهب ريح العجب على قلب الإنسان فيظلمه ويفسده، وينشر فيه الجراثيم والموبقات التي تكفي واحدة منها لهلاك الإنسان كالكبر والرياء. ويدفع العجب بالإنسان إلى احتقار عباد الله واستصغار المعاصي فيقتحمها. وعند ذلك لا يقبل له عمل، أو يرفع له دعاء ويستحق مقت الله سبحانه فيكتب في ديوان الهالكين ويحرم من كل كمال وخير عند رب العالمين، ويكتب على جبينه «شقي»، فيكون مأواه ومنتهاه جهنم ويخلد في عذابها الأليم.

من هنا سوف نتعرف على مفاسد العجب وآثاره لنكون على حذر، وحتى نشعر بخطورته فنسرع في العلاج والدواء.

اعلم إن العجب بنفسه من المهلكات والموبقات فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من دخله العجب هلك»[1].

ولهذه الرذيلة الأخلاقية، والمرض القلبي العديد من المفاسد والآثار، التي تكفي واحدة منها للقضاء على روح المرء، والوصول إلى قعر جهنم حيث الشياطين وحزبهم الظالمون.

وأن الله سبحانه و تعالى ولشدة خطورة هذا الداء والوباء ـ العجب ـ يبتلي عبده المؤمن بالمعصية حتى يصبح آمناً منه، وذلك لأن مرض العجب أشد من الذنب في حضرة الباري جل وعلا. فعن مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

---

(١) وسائل الشيعة ـ المجلد الأول ـ الباب الثالث.

«إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً»[1].

فالعجب شجرة خبيثة نتاجها الكثير من الموبقات والمهلكات، فعندما يتأصل العجب في القلب، يجر عمل الإنسان إلى الكفر والشرك، وإلى ما أعظم من ذلك، وسوف نتعرف فيما يلي إلى جملة من هذه المفاسد حتى ندرك أهمية مقاومة هذا الداء وضرورة اقتلاعه من الجذور.

١ـ استصغار المعاصي، وعدم إصلاح النفس

من مفاسد العجب استصغار المعاصي، بل إن ذا العجب لا ينهض لإصلاح نفسه، ويظن أن نفسه زكية طاهرة، فلا يخطر على باله أبداً أن يطهرها من المعاصي، لأن ستار الإعجاب بالنفس وحجابه الغليظ يحول بينه وبين أن يرى معايب نفسه، وهذه مصيبة، إذ إنها تحجز الإنسان عن جميع الكمالات، وتبتليه بأنواع النواقص، وتؤدي بعمل الإنسان إلى الهلاك الأبدي، ويعجز أطباء النفوس عن علاجه.

٢ـ احتقار عباد الله تعالى.

ينظر المصاب بداء العجب باحتقار إلى عباد الله تعالى، فيحسب أعمال الناس لا شيء وإن كانت أفضل من أعماله، ويغفل عن أن أولياء الله لا يعرفهم أحد سواه تعالى، وقد أخفاهم سبحانه حتى يتعامل الناس مع بعضهم على أنهم جميعاً أولياء له تعالى، فلعل بين الأشخاص الذين يحتقرهم أولياء الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فقد هلك وبارز ولي نعمته بالمحاربة، واستحق

---

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

احتقار الله عز وجل له ففي الحديث «من احتقر مؤمناً حقره الله»، فتكون هذه النظرة سبباً لهلاك المرء، وشوكة في طريق خلاصه ونجاته.

٣ـ استحقاق المقت الإلهي.

إن الباري عز وجل يبغض المعجب بنفسه ويمقته، فيحرمه من الوصول إلى الكمالات الحقيقية، ومن نيل السعادة المطلقة، فيُكتب المرء عندئذ من الهالكين، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه وهو محبط للعمل، وهو داعية المقت من الله سبحانه»[١].

٤ـ سيطرة الشيطان.

فقد سأل النبي موسى بن عمران عليه السلام الشيطان قائلاً له:

«أخبرني بالذنب الذي إذا ارتكبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[٢].

٥ـ الوحدة والوحشة

إن صورة السرور التي تحصل عند الإنسان من العجب تكون في البرزخ وما بعد الموت موحشة ومرعبة جداً، ولا نظير لها في الهول.

وقد أشار إلى ذلك رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «ولا وحدة أوحش من العجب»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ج٦٩ ـ ص٣٢١.

(٢) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

(٣) وسائل الشيعة ـ المجلد الأول ـ الباب الثالث.

٦ـ عدم قبول الأعمال.

لا تقبل عبادة المعجب بنفسه أو عمله، ولا يرفعان إلى الله تعالى، حتى أن الشيطان ـ لعنه الله ـ لا يبالي بالمرء الذي أصيب بهذا الداء، وذلك أنه يعرف أن المعجب بنفسه لن يقبل منه عمل، أو يتقدم خطوة إلى الله عز وجل ما دام مصاباً بهذا الداء.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الشيطان يقول: إذا ظفرت بابن آدم في ثلاث فلا يهمني عمله بعد ذلك لأنه لن يقبل منه: إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، وتسرب إليه العجب»[1].

٧ـ داء الرياء.

إذا استصغر الإنسان أعماله ووجدها لا شيء، ووجد أخلاقه فاسدة، وإيمانه لا يستحق الذكر، يكون بذلك سلم من رذيلة العجب.

ولكن إذا رأى المرء أعماله جيدة، ونفسه كاملة، ولم يكن يراها مقصرة أمام الله تعالى، وكان معجباً بنفسه وأعماله وأخلاقه، فإنه لا محالة سوف يندفع إلى التظاهر والرياء، فيعرض بضاعته وصفاته أمام الناس، ويتوجه إليهم حين أدائها غافلاً عن المبدأ المتعال.

ولابد من الإلتفات إلى أن المفاسد والآثار التي تنتج عن داء الرياء والشرك الخفي بالله تعالى يجب اعتبارها من مفاسد العجب أيضاً.

---

(١) خصال الصدوق ـ باب الثلاثة.

٨ـ رذيلة الكبر.

ليعلم المعجب أن رذيلة العجب هي بذرة لرذائل أخرى، ومنشأ لأمور يشكل كل واحد منها سبباً للهلاك الأبدي والخلود في العذاب.

ومن جملة الرذائل التي تولد في حضن العجب وتكون نتيجة له، رذيلة الكبر المهلكة، فإذا أعجب المرء بأعماله واستصغر أعمال الآخرين بل واحتقرها، وجد نفسه أعظم منهم وأفضل، ومن هنا فإنه يتكبر عليهم، ويبتلى بمعصية التكبر، وسوف يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

٩ـ الاستغناء عن الحق تعالى.

ومن مفاسد العجب الأخرى أنه يجعل الإنسان يعتمد على نفسه في أعماله، وهذا ما يصبح سبباً في أن يحسب الإنسان الجاهل المسكين نفسه في غنى عن الحق تعالى، ولا يرى فضل الحق تعالى عليه، ويرى بحسب عقله الصغير أن الحق تعالى ملزم بأن يعطيه الأجر والثواب، ويتوهم أنه حتى لو عومل بالعدل أيضاً فإنه يستحق الثواب والأجر، فيغفل عن أن الله تعالى لا يحاسب أحداً بعدله إلا وكان من الهالكين، فقد قال سبحانه و تعالى لداود عليه السلام:

«يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: يا رب كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ فقال: يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك»[1].

---

(١) خصال الصدوق ـ باب الثلاثة.

أعوذ بالله تعالى من المناقشة في الحساب التي تهلك الصديقين ومن هو أعظم منهم فالعجب إذاً يهلك الإنسان ويصل به إلى أسفل الدرجات، حيث يكون أضل من الحيوانات، ويأتي الله تعالى وهو من الأشقياء الذين يردون جهنم وبئس الورد المورود.

٦ـ علاج العجب

بعد أن تعرفنا على داء العجب وعلى مراتبه، وأدركنا مدى خطورته وشدة هلاكه، لا بد أن نسارع في النهوض لإصلاح النفس، ونأخذ الدواء للخلاص من هذا المرض الخطير وتطهير القلب منه، قبل الانتقال إلى عالم الآخرة، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وهذا يكون بخطوات عديدة أهمها: الاستعاذة واللجوء إلى الله تعالى، والتعرف على آثار ومفاسد هذه الرذيلة المهلكة، وحسن الظن بعباد الله، والأهم هو رؤية النفس مقصرة بشكل دائم وعدم الرضى عنها أبداً.

لتطهير القلب من شائبة العجب، واستئصالها من النفس الإنسانية ينبغي القيام بعدة أمور ومراعاتها بشكل دائم، ومن أهمها:

١ـ الاستعاذة باللّه تبارك و تعالى

تجب الاستعاذة بالله من شر النفس ومكائدها التي تجر الإنسان من المعصية إلى الكفر، ومنه إلى العجب به، إن النفس والشيطان بتهوينهما بعض المعاصي، يلقيان بالإنسان إلى المعصية، وبعد تأصيلها في قلبه وتحقيرها وتصغيرها في عينه يبتلى بمعصية أخرى أكبر قليلاً من الأولى، ومع التكرار تسقط المعصية الثانية من النظر أيضاً، وتبدو صغيرة وهينة في عين الإنسان، فيبتلى بما هو أعظم. وهكذا يسير الإنسان نحو الهاوية خطوة فخطوة، وشيئاً فشيئاً فتصغر كبائر المعاصي في عينه، إلى أن تسقط جميع المعاصي في نظره، فيستهين بالشريعة والقانون الإلهي ويؤول عمله إلى الكفر والزندقة، والإعجاب بهما.

فيا أيها الأخ كن حذراً تجاه مكائد النفس والشيطان واعلم أنه لن يدعك أيها المسكين تؤدي عملاً واحداً بإخلاص، حتى هذه الأعمال غير الخالصة التي تقبلها منك تعالى بفضله، لن يدعك الشيطان تصل بها إلى الهدف، فيعمل عملاً تحبط به أعمالك كلها، وتخسر حتى هذا النفع بسبب هذا العجب والتدلل في غير موقعه.

وأكرر التذكير بأنه في جميع الأحوال لا تعلق على نفسك الآمال لأنه لا ينهض أحد بعمل غير الله تعالى.

فاطلب من الحق تعالى نفسه بتضرع وخشوع، كي يعينك في هذه المجاهدة لعلك تنتصر. إنه ولي التوفيق.

٢ـ معرفة مفاسد وآثار العجب

إذا تعرف المرء على مفاسد وآثار العجب المتقدمة، والتي كما تحدثنا تكفي واحدة منها لهلاك الإنسان وشقائه، ولاحظها بدقة، ورجع إلى الأخبار والآثار الواردة بشأنها عن الرسول الأكرم ﷺ، وأهل بيت ذلك القائد صلوات الله عليهم أجمعين، فمن المحتم أن يعتبر الإنسان نفسه ملزماً بالنهوض لإصلاح النفس وتطهيرها من هذه الرذيلة، واستئصال جذورها من باطن النفس، لئلا ينتقل لا سمح الله إلى العالم الآخر وهو بهذه الصفة وإنه حين يغمض عينه المادية الملكوتية، ويشرق عليه سلطان البرزخ والقيامة، يرى أن حال أهل كبائر المعاصي أفضل من حاله حيث غمرهم الله برحمته الواسعة بسبب ندمهم أو بسبب ما كان لديهم من رجاء بفضل الله تعالى. وأما هذا المسكين الذي رأى

نفسه مستقلاً، غنياً عن فضل الله ورحمته فسوف يكون حسابه عسيراً، وإن جميع عباداته وأعماله ستكون هي السبب في هلاكه وشقائه. فمن عرف هذه العذابات الأليمة التي تتولد من العجب بصورة صحيحة، فإنه سرعان ما يبذل كل جهده في سبيل اقتلاع جذور هذا المرض من القلب وتطهيره.

٣ـ حسن الظن بالآخرين

تقدم أن الشيطان يوحي إلى ابن آدم سوء الظن بعباد الله، فيرى نفسه أفضل من هذا الشخص وذاك، ويعتبر أعمال الآخرين غير مقبولة، وبدون أية قيمة، ويكون ذلك سبباً لتعاظمه على الناس وتعاليه عليهم، فيبتلى بالتكبر و...

من هنا ينبغي أن يحسن المرء ظنه بالآخرين، قولوا للشيطان والنفس: قد تكون لهذا الشخص المبتلى بالمعصية حسنات أو أعمال أخرى فيشمله الله تعالى بها بوافر رحمته، ويجعل نور تلك الحسنات والأعمال مناراً يهديه فيؤول إلى حسن العاقبة.

ولعل الله قد ابتلى هذا الشخص بالمعصية لكي لا يُبتلى بالعجب، الذي يُعد أسوأ من المعصية. مثلما ورد في الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً». ولعل عملي أنا يؤول إلى سوء العاقبة بسبب سوء الظن هذا.

كان شيخنا الجليل العارف الكامل الشاه آبادي (روحي فداه) يقول: «لا تعيبوا على أحد حتى في قلوبكم، وإن كان كافراً، فلعل نور فطرته يهديه، ويقودكم تقبيحكم ولومكم هذا إلى سوء العاقبة، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير التعيير القلبي».

بل كان يقول: «لا تلعنوا الكفار الذين لا يعلم بأنهم رحلوا من هذا العالم وهم في حال الكفر، فلعلهم اهتدوا في أثناء الرحيل فتصبح روحانيتهم مانعاً لرقيكم».

٤ـ رؤية النفس مقصرة

إن الذي يرى نفسه مستقلة وغنية عن فضل الله تعالى فإنه سبحانه وتعالى سوف يحاسبه لذلك حساباً عسيراً، ويخضعه لميزان العدل كما أراد، ويفهمه بأنه لم يقم بأية عبادة لله تعالى، وأن جميع عباداته أبعدته عن الساحة المقدسة، وأن كل إيمانه وأعماله باطلة وتافهة.

بل إن تلك الأعمال والعبادات نفسها هي سبب الهلاك وبذرة العذاب الأليم ورأس مال الخلود في الجحيم.

الويل لمن يعامله الباري بعدله فإذا ما عومل الناس مثل هذا التعامل ما نجا أحد من الأولين والآخرين.

إن مناجاة صفوة الله ـ من الأنبياء والأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم ـ مشحونة بالاعتراف بالتقصير، والعجز عن القيام بالعبودية. وعندما يعلن رسول الله محمد ﷺ أفضل الكائنات وأقربها إلى الله قائلاً: «ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك حق عبادتك»[1] فماذا سيكون حال سائر الناس؟...

نعم، إنهم العارفون بعظمة الله تعالى، العالمون بحقيقة نسبة «الممكن» إلى «الواجب» إنهم يعلمون، أنهم لو قضوا جميع أعمارهم في الدنيا بالعبادة

---

(١) مرآة العقول ـ ج٨ ـ كتاب الإيمان والكفر ـ باب الشكر.

والطاعة والتحميد والتسبيح، لما أدوا شكر نعم الله، فكيف يمكن أداء حق الثناء على ذاته وصفاته المقدسة؟

إنهم يعلمون أنه ليس لموجود شيء. فالحياة والقدرة والعلم والقوة وسائر الكمالات الأخرى هي ملك لكماله تعالى و «الممكن» فقير، بل فقر محض يستظل بظله تعالى، وليس بمستقل بذاته، أي كمال يملكه «الممكن» بنفسه لكي يتظاهر بالكمال؟

وأية قدرة يمتلكها لكي يتاجر بها؟

أولئك العارفون بالله وبجماله وجلاله شاهدوا شهود عيان نقصهم وعجزهم وشاهدوا كمال «الواجب» تعالى، وإنما نحن المساكين الذين قد ران حجاب الجهل والغفلة والعجب والمعاصي على قلوبنا وقوالبنا وغشي أبصارنا وأسماعنا وعقولنا وكافة قوانا المدركة بحيث أخذنا نستعرض عضلاتنا في مقابل قدرة الله القاهرة، ونعتقد أن لنا استقلالاً وشيئية بذواتنا.

«ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وإن اجتهد إلا كان مقصراً دون استحقاقك بفضلك فأشكر عبادك عاجز عن شكرك، وأعبدهم مقصر عن طاعتك»[1].

لقد تقدم فيما مضى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال رسول صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل لداود عليه السلام»: «يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك». فالكل مستحق للعذاب وفقاً للعدالة، فثواب عبادات العبد لا تعادل كلمة شكر واحدة على نعمائه.

---

(١) الصحيفة السجادية ـ مناجاة العارفين.

أيها «الممكن» المسكين الجاهل بنفسك، وبعلاقتك مع الله! أيها «الممكن» السيئ الحظ الغافل عن واجباتك إزاء مالك الملوك!

إن هذا الجهل هو سبب جميع ما يلحقك من سوء التوفيق، وهو الذي ابتلانا بجميع هذه الظلمات والمكدرات، إن الفساد قد ينشأ من الأساس، وإن تلوث الماء قد يكون من المعين.

إن عيون معارفنا عمياء، وقلوبنا ميتة وهذا سبب جميع المصائب ولكننا مع كل ذلك لسنا حتى بصدد إصلاح أنفسنا».

وعليه فإذا علمت أن الصديقين رغم أنهم مطهرون من الذنب والمعصية، جميعاً هالكون في الحساب. فماذا نقول أنا وأنتم؟... هذا كله عندما تكون أعمالي وأعمالكم خالصة من الرياء الدنيوي ومن الموبقات والمحرمات وقلما يحصل لنا خلوص عمل من الرياء والنفاق. لذلك فإذا استدعى العمل العجب والتدلل والتغنج، فافعل. وإذا استدعى الخجل والتذلل والإعتراف بالتقصير فيجب عليك بعد كل عبادة أن تتوب من تلك الأكاذيب التي قلتها في حضرة الله تعالى وما نسبته إلى نفسك دون دليل.

ألا ترى أن عليك أن تتوب من قولك وأنت تقف أمام الله قبل الدخول في الصلاة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] فهل وجوهكم متوجهة إلى فاطر السموات والأرض؟

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٧٩.

(٢) سورة الأنعام ـ الآية ١٦٢.

هل أنتم مسلمون وخالصون من الشرك؟ هل صلاتكم وعبادتكم وحياتكم ومماتكم لله؟

ألا يبعث على الخجل ـ بعد هذا ـ أن تقولوا في الصلاة «الحمد لله رب العالمين»؟ فهل حقاً تقرون بأن المحامد كلها لله، في حين تقرون بالحمد لعباده، بل ولأعدائه؟ أليس قولكم «رب العالمين» يكون كذباً لأنكم تقرون في الوقت نفسه بالربوبية لغيره تعالى في هذا العالم، أفلا يحتاج ذلك إلى التوبة والخجل؟

«إلهي بك نعوذ نحن المساكين من شر الشياطين والنفس الأمارة بالسوء اللهم فاحفظنا من مكائدهما بحق محمد وآله صلواتك عليهم أجمعين».

العجب
معنى العجب
درجات العجب
درجـــات العجـــب
المرتبة الأولى
المرتبة الثانية
المرتبة الثالثة
المرتبة الرابعة
منشأ رذيلة العجب
حب النفس
كيف يغوي الشيطان الإنسان
استصغار المعاصي وعدم إصلاح النفس
احتقار عباد الله
استحقاق المقت الإلهي
سيطرة الشيطان
الوحدة والوحشة
مفاسد العجب وآثاره
عدم قبول الأعمال
داء الرياء
رذيلة الكبر
الاستغناء عن الحق تعالى
علاج العجب
الاستعاذة بالله تبارك وتعالى
معرفة مفاسد وآثار العجب
حسن الظن بالآخرين
رؤية النفس مقصّرة

القسم الثاني

الكبر

عن حكيم قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد، فقال: الكبر أدناه»[1].

---

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر ـ باب الكبر.

١ـ ما هو الكبر؟

رذيلة الكبر من أشد الأمراض القلبية إهلاكاً، وهي من نتائج شجرة العجب الخبيثة، وتكون بالتعالي والتعاظم على الآخرين.

الكبر عبارة عن حالة نفسية تجعل الإنسان يترفع ويتعالى على الآخرين. ومن أمارته تلك الأعمال التي تصدر عن الإنسان، والآثار التي تبدو منه بحيث يقال عنه أنه متكبر.

وهذه الصفة هي غير العجب، بل هي كما سبق قوله صفة رذيلة وخبيثة، تنجم عن العجب، لأن العجب هو الإعجاب بالذات، والكبر هو التعالي والتعاظم على الناس.

فعندما يتوهم الإنسان أن فيه صفة من صفات الكمال، تنتابه حالة هي مزيج من السرور والتدلل والتغنج وغيرها. هذه هي صفة «العجب»، ولكونه يرى الآخرين لا يملكون تلك الصفة التي يتوهمها في نفسه، ينتابه شعور آخر هو تصور التفوق والتقدم، وهذا يؤدي به إلى التعاظم والترفع وهذه هي صفة «الكبر».

إن كل هذه الحالات تكون في القلب وفي الباطن، وتظهر آثارها على الظاهر، في الملامح وفي الأفعال وفي الأقوال. وبهذا يصبح الإنسان مغروراً وإذا ازداد أصبح معجباً بنفسه، وعندما يطفح إعجابه بنفسه، يتعاظم ويترفع ويتكبر.

واعلم أن الصفات النفسانية سواء كانت من صفات النقص والرذيلة أم من صفات الكمال والفضيلة، فإنها دقيقة ومبهمة جداً، ولهذا فإن التمييز بينها والتعرف عليها يكون في غاية الصعوبة، ولربما يقع الكثير من الاختلاف بين العلماء الأعلام عند تحديدها، أو أنه يصعب وضع تعريف لهذه الصفة الوجدانية من دون أن تصيبها منقصة.

لذلك فمن الخير ترك هذه الأمور للوجدان نفسه، وتحرير أنفسنا من اصطناع المفاهيم حتى لا نتخلف عن الهدف المقصود والمنشود.

٢ـ درجات الكبر

لكل مرض وداء قلبي مراتب ودرجات، فكما أن لـداء العجـب درجـات ست فكذلك هي رذيلة الكبر، حيث أن لها ست درجات تشبه التي ذكرناها في العجب تماماً.

كما أن هناك تقسيماً ثانياً لدرجات الكبر حيث يبـين هـذه الرذيلـة علـى درجات أربع وهي: ١ـ التكبر على الله، ٢ـ التكبر على الأنبيـاء والأوليـاء، ٣ـ التكبر على الأوامر الإلهية، ٤ـ التكبر على العباد.

وهي:

١ـ الكبر بسبب الإيمان والعقائد الحقة.

٢ـ الكبر بسبب الملكات الفاضلة والصفات الحميدة.

٣ـ الكبر بسبب العبادات، والأعمال الصالحة.

٤ـ الكبر بسبب الكفر والعقائد الباطلة.

٥ـ الكبر بسبب الأخلاق الرذيلة والملكات القبيحة.

٦ـ الكبر بسبب المعاصي والأعمال السيئة.

وقد ذكر لدرجات هذه الصفة الخبيثة تقسيم وبيان آخر وهـو علـى أربـع درجات.

١ـ التكبر على الله تعالى:

وهو أقبحها وأشدها هلكة، ويأتي على رأس درجات الكبر، وتراه في أهل الكفر والجحود ومدعي الألوهية، وقد تراه أحياناً في بعض أهل الدين ولا يناسب ذكره هنا، وهذا هو منتهى الجهل، وعدم معرفة «الممكن» حدود نفسه، وعدم معرفة مقام «واجب الوجود».

٢ـ التكبر على الأنبياء والرسل والأولياء صلوات الله عليهم:

وكثيراً ما كان يحصل هذا في زمان الأنبياء قال تعالى على لسانهم ﴿... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا...﴾[1] وقال تعالى على لسان آخرين منهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

وفي صدر الإسلام حدث الكثير من التكبر على أولياء الله، وفي هذا الزمان نجد أيضاً نماذج منه لدى بعض المحسوبين على الإسلام.

٣ـ التكبر على أوامر الله تعالى:

وهذا يرجع إلى التكبر على الله، فيظهر عند بعض العاصين، كأن يمتنع أحدهم عن الحج بحجة أنه لا يستسيغ مناسكه من إحرام وغيره.

أو يترك الصلاة لأن السجود لا يليق بمقامه، بل قد يظهر ذلك أحياناً عند أهل النسك والعبادة وأهل العلم والتدين، كأن يترك الأذان تكبراً، أو لا يتقبل مقولة الحق إذا جاءت من شخص قريب له، أو دونه منزلة. فقد يسمع الإنسان

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٤٧.

(٢) سورة الزخرف ـ الآية ٣١.

قولاً من زميل له، فيرده بشدة ويطعن في قائله، ولكنه إذا سمع ذلك القول نفسه من كبير في الدين أو الدنيا، قبله. بل قد يكون جاداً في رد الأول، وجاداً في قبول الثاني.

إن شخصاً هذا شأنه لا يكون من طلاب الحق، بل يكون تكبره قد أخفى عنه الحق، وأعماه تملقه لذلك الكبير وأصمه. ومثل هذا التكبر يتصف به أيضاً من يترك تدريس العلم أو كتاب باعتباره لا يليق به، أو يرفض تدريس أشخاص لا مركزية لهم، أو لأن عددهم قليل، أو يترك صلاة الجماعة في مسجد صغير ولا يقتنع بعدد معدود من المأمومين حتى وإن علم أن في مثل تلك الجماعة رضا الحق تعالى. وقد تصبح هذه الحال من الدقة بحيث أن صاحبها لا يدرك أن عمله هذا يرجع إلى الكبر، إلا إذا تدارك الأمر بإصلاح نفسه وتخلص من مكائد هذه الحال.

٤ـ التكبر على عباد الله تعالى:

وهذا أيضاً يراه أهل المعرفة راجعاً إلى التكبر على الله، وأقبحه التكبر على العلماء به تعالى، ومفاسده أكثر من كل شيء وأهم.

ومن هذا التكبر رفض مجالسة الفقراء، والتقدم في المجالس والمحافل، وفي المشي والسلوك، وهذا النوع من التكبر رائج وشائع بين مختلف الطبقات، ابتداءً من الأشراف والأعيان، والعلماء والمحدثين، والأغنياء حتى الفقراء والمعوزين، إلا من حفظه الله من ذلك.

يقول أحد المحققين والذي أخذنا منه الكثير من أصول هذا البحث وترجمناه: «إن أدنى درجة الكبر في العالم أن يدير وجهه عن الناس كأنه

يعرض عنهم، وفي العابد هي أن يعبس في وجه الناس ويقطب جبينه، وكأنه يتجنبهم أو أنه غاضب عليهم، غافلاً من أن الورع ليس في تقطيب الجبين، ولا في عبوس ملامح الوجه، ولا في البعد عن الناس والإعراض عنهم، ولا في لـيٍّ الجيد، وطأطأة الرأس، ولملمة الأذيال، بل الورع يكون في القلب».

قال رسول الله ﷺ «ها هنا التقوى»، وأشار إلى صدره[1].

(١) بحار الأنوار ج ٧٠ ـ كتاب الإيمان والكفر ـ باب الكبر.

٣. أسباب ومناشئ رذيلة الكبر

للكبر أسباب ومناشئ متعددة، ولكن بعد إعمال الفكر والتأمل نجد أنها كلها تعود في الواقع إلى سبب أساسي واحد وهو تصور وجود كمال موهوم والابتهاج بذلك، والعجب به، ورؤية الآخرين خلواً منه.

ـ السبب الأساسي

للكبر أسباب عديدة، ترجع كلها إلى سبب أساسي واحد وهو توهم الإنسان الكمال في نفسه، مما يبعث على العجب الممزوج بحب الذات، فيحجب كمال الآخرين، ويراهم أدنى منه، ويترفع عليهم قلبياً أو ظاهرياً.

ولو لاحظنا وجود هذه الرذيلة المهلكة بين الطبقات المختلفة للناس، فإننا سوف ندرك بأن تصور الكمال الموهوم هو السبب الأساسي لهذا المرض والداء الخطير. وسوف نقوم بجولة سريعة على معظم طبقات المجتمع الإنساني، ونبين هذه الصفة الخبيثة فيه، وعندها ندرك النتيجة.

ـ صورة الكبر في الطبقات المختلفة للبشر

١ـ عند علماء العرفان.

فقد يحصل بينهم أن يتصور أحدهم نفسه من أهل العرفان والشهود ومن أصحاب القلوب والسوابق الحسنى، فيترفع على الآخرين ويتعاظم عليهم. ويرى أن الحكماء والفلاسفة سطحيون، وأن الفقهاء والمحدثين لا يتجاوزون الظاهر في نظراتهم، وأن سائر الناس كالبهائم، وينظر إلى عباد الله بعين التحقير

والازدراء. ويذهب هذا المسكين ينمق الحديث عن الفناء في الله والبقاء بالله، ويدق طبل التحقيق. مع أن المعارف الإلهية تقتضي حسن الظن بالكائنات، فلو أنه كان قد تذوق حلاوة المعرفة بالله لما تكبر على ظاهر جمال الله وجلاله بحيث أنه في مقام العلم والبيان يصرح خلاف حاله، ولكن الحقيقة هي أن هذه المعارف لم تدخل قلبه، بل إن هذا المسكين لم يبلغ حتى مقام الإيمان ولكنه يتشدق بالعرفان، من دون أن يكون له حظ منه، ويتحدث عن مقام التحقق.

٢ـ عند الحكماء.

فإن بينهم أناساً أيضاً يرون أنهم بما يملكون من براهين ومن علم بالحقائق، وبكونهم من أهل اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله، ينظرون إلى سائر الناس بعين التحقير، ولا يعتبرون علوم الآخرين علوماً، ويرون عباد الله جميعاً ناقصي علم وإيمان، فيتكبرون عليهم في الباطن ويعاملونهم في الظاهر بكبرياء وغرور، مع أن العلم بمقام الربوبية، وفقر الممكن (المخلوق)، يقضيان بخلاف ذلك، والحكيم من تحلى بملكة التواضع بواسطة العلم بالمبدأ والمعاد.

لقد وهب الله لقمان الحكمة بنص من القرآن الكريم ومن جملة وصايا ذلك العظيم لابنه في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

(١) سورة لقمان ـ الآية ١٨.

٣ـ عند مدعي الإرشاد والتصوف وتهذيب الباطن.

حيث نجد فيهم أشخاصاً يعاملون الناس بالتكبر ويسيئون الظن بالعلماء والفقهاء وأتباعهم، ويطعنون بالعلماء والحكماء، ويرون الناس، عدا أنفسهم ومن يلوذ بهم، من أهل الهلاك، وبما أنهم صفر اليدين من العلوم، يصفون العلوم بأنها أشواك الطريق، ويرون أصحابها شياطين طريق السالك، من أن كل ما يزعمونه لأنفسهم من مقام يقتضي خلاف ذلك كله.

إن من يدعي أنه هادي الخلائق ومرشد الضالين يجب أن يكون هو بنفسه منزهاً عن المهلكات والموبقات، وزاهداً في الدنيا، غارقاً في جمال الله، لا يتكبر على خلقه ولا يسيء الظن بهم.

٤ـ عند علماء الفقه، وطلابه.

فكذلك نجد أحياناً بين الفقهاء وعلماء الفقه والحديث وطلابهما من ينظر إلى سائر الناس بعين الاحتقار، ويتكبر عليهم، ويرى نفسه جديراً بكل إكرام وإعظام ويعتقد أن من المفروض على الناس أن يطيعوا أمره إطاعة عمياء، وأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

وما من أحد يستحق الجنة في رأيه، إلا هو مع أفراد معدودين مثله، وكلما جاء ذكر طائفة مقترناً بأي علم من العلوم، طعن فيهم، من دون أن يعترف بأي علم من العلوم فهو لا يعترف بأي علم سوى علمه القليل الذي يتمتع به، ويرى أن تلك العلوم تافهة وغير نافعة ومدعاة للهلاك، فيرفض العلماء وسائر العلوم

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآية ٢٣.

جهلاً وسفهاً. ويظهر كأن تدينه هو الذي يحتم عليه أن يحتقرهم ويستهين بهم، مع أن العلم والدين منزهان عن أمثال هذه الأطوار والأخلاق. إن الشريعة المطهرة تحرم التصريح بقول من دون علم. وتوجب الحفاظ على كرامة المسلم. أما هذا المسكين الذي لا معرفة له بالدين ولا العلم، فيعمل على خلاف قول الله ورسوله، ثم يقول إن ذلك من صلب الدين، مع أن سيرة السلف والخلف من العلماء العظام تكون مغايرة لهذا. إن كل علم من العلوم الشرعية يقضي أن يتصف العلماء بالتواضع، وأن يقتلعوا جذور التكبر من قلوبهم. ولا يوجد علم يدعو إلى التكبر ويرفض التواضع. وعليه، سوف نبين العلة في كون علم هؤلاء الأشخاص يخالف عملهم.

٥ـ عند علماء العلوم الأخرى.

فالكبر منتشر بين علماء العلوم الأخرى أيضاً في الطب والرياضيات والطبيعة، وكذلك أصحاب الصناعات الهامة كالكهرباء والميكانيك وغيرهما. إنهم لا يقيمون وزناً للعلوم الأخرى مهما تكن، ويحتقرون أصحابها، وكل منهم يحسب أن ما عنده وحده هو العلم، وما عند غيره ليس بعلم، فيتكبر على الناس في باطنه وظاهره، مع أن ما عنده من علم لا يستدعي مثل هذا التكبر.

٦ـ عند أهل العبادة.

وهنا من غير أهل العلم، مثل أهل النسك والعبادة، من يتكبر أيضاً على الناس ويتعالى عليهم، ولا يعتبر الناس حتى من العلماء من أهل النجاة، وكلما جرى حديث عن العلم قال: «ما فائدة علم بلا عمل؟ العمل هو الأصل». إنهم

يهتمون بما يقومون به من عمل وطاعة، وينظرون بعين الاحتقار إلى جميع الطبقات، مع إن المرء إذا كان من أهل الإخلاص والعبادة ينبغي لعمله أن يصلحه. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي معراج المؤمن، ولكن هذا الذي أمضى خمسين سنة في الصلاة وأداء الواجبات والمستحبات تجده مصاباً برذيلة الكبر التي هي من الإلحاد، وبالعجب الذي هو أكبر من الفحشاء، وبالتقرب من الشيطان وخلقه.

إن الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء ولا تحافظ على القلب، بل لكثرتها تبعث على ضياع القلب، إن مثل هذه الطاعة ليست بصلاة. إن صلاتك التي تحافظ عليها كثيراً وتحرص على إقامتها، إذا كانت تقربك من الشيطان وخاصة من الكبر فهي ليست بصلاة، لأن الصلاة لا تستدعي ذلك.

كل هذه الأمور تحصل من العلم والعمل، أما الذي يحصل من غير ذلك فيرجع أيضاً إلى تصور المرء بأنه يمتلك إحدى الكمالات وأن غيره يفتقر إليها. فهذا الذي يملك الحسب والنسب يتكبر على من لا يملكهما. وقد يتكبر صاحب الجمال على فاقده وطالبه، أو إذا كان كثير الأتباع والأنصار أو ذا قبيلة كبيرة، أو له تلامذة كثيرون، وأمثال ذلك، فإنه يتعالى ويتكبر على الذي ليس له مثل ذلك.

وبناء عليه فإن سبب الكبر الرئيسي إنما هو تصور وجود كمال موهوم، والابتهاج بذلك، والعجب به، ورؤية الآخرين خلواً منه.

وقد يحدث أحياناً أن صاحب الأخلاق الفاسدة والأعمال القبيحة يتكبر على غيره، ظاناً أن ما فيه ضرب من الكمال. وعلى الرغم من أن المتكبر قد

يمتنع أحياناً لسب ما من إظهار التكبر علانية، ولا يفصح عن أي أثر لـذلك، إلا أن هذه الشجرة الخبيثة تمد جذورها في قلبه، ولا بد أن يبين أثر ذلك منـه إذا خرج عن طوره الطبيعي، كأن يستولي عليه الغضب فيفلت من الزمام، وإذا بـه تظهر عليه أمارات الكبرياء والتعاظم، ويباهي بما عنده من علم أو عمـل أو أي شيء آخر، ويفاخر الناس به.

وفي أحيان أخرى قد لا يهتم بإخفاء تكبره على من حوله، كمـا لـو كـان العنان قد أفلت من يده، فتظهر آثار الكبر في أعماله وحركاته وسـكناته، كـأن يتقدم في المجالس ويسبق الآخرين في الدخول والخروج، ولا يسمح للفقـراء بحضور مجالسه، ولا يحضر مجالسهم، ويحيط نفسه بهالة من الحرمـة، ويظهـر التعالي في مشيته وفي نظرته وفي حديثه مع الناس.

وقد يظهر الكبر على اللسان بتبيان المفاخرة والمباهاة وتزكية الذات، فهـذا العابد وهو في مقام المفاخرة يقول: إنني قمت بكذا عمل، فينـتقص بهـذا مـن الآخرين عن طريق إضفاء الأهمية على أعماله. وأحياناً لا يصرح بذلك ولكنـه قد يتفوه بما يوحي أنه يزكي ذاته.

والعالم يقول للآخرين: ما أدراك أنت؟ إنني طالعت الكتاب الفلاني مـرات عديدة، وأمضيت سنوات لدى المجاميع العلمية، ورأيت عدداً من أساطين العلم وأساتذته، لقد أجهدت نفسي كثيراً، صنفت وألفت الكتب الكثيـرة، ومـا إلـى ذلك...

ـ أسباب أخرى لرذيلة الكبر

اعلم أن للتكبر عوامل أخرى فضلاً عن السبب الذي سبق ذكره، وإن كانت (العوامل) بعد إعمال الفكر والتأمل ترجع إلى السبب المتقدم، ولكن حيل الشيطان ومكر النفس الأمارة بالسوء يدفعان المرء إلى الغفلة عن ذلك السبب من خلال إيقاعه في فخ وسبب آخر، هو في الحقيقة يتفرع عن السبب الرئيسي، ومن جملة هذه العوامل:

١ـ الجهل، وضيق أفق الفكر.

الجهل وضيق أفق الفكر، وبعبارة أخرى الجهل وعدم المعرفة، من العوامل التي تكون سبباً في إصابة القلب بداء الكبر.

فجهل المرء بحاله، وعدم إدراكه لوضاعته وفقره ومسكنته، وغفلته عن مثواه الأخير و... كل هذه الأمور إذا جهلها العبد أو تجاهلها وغفل عنها، فمن السهل جداً أن يدخل الكبر إلى قلبه ويكون من المستكبرين، وكأنه لا يدري أنه نطفة من مني، وهو في طريقه ليكون جيفة نتنة!

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «عجبت للمتكبر الفخور كان أمس نطفة، وهو غداً جيفة!».

ولكن الإنسان لضيق أفقه ما إن يجد في نفسه خصلة مميزة حتى يتصور لها مقاماً ومركزاً خاصاً. ولكنه لو نظر بعين العدل والإنصاف إلى كل أمر يتقنه وكل خصلة يتميز بها، لأدرك أن ما تصوره كمالاً يفتخر به ويتكبر بسببه، ليس كمالاً أصلاً، ولو صح وكان كمالاً فإنه لا يكاد يساوي شيئاً إزاء كمالات

الآخرين، وأنه كمن صفع وجهه ليحسب الناس إحمرار وجهه نتيجة النشاط والحيوية، كما قيل «استسمن ذو ورم». فعلى سبيل المثال إن العارف الذي نظر من خلال عرفانه إلى الناس جميعاً بين الازدراء متكبراً، أو يقول عنهم أنهم قشريون وسطحيون، ترى أنه لا يملك شيئاً من المعارف الإلهية سوى حفنة من المفاهيم التي لا تعدو أن تكون حجباً تغطي الحقائق، أو مطبات في الطريق ومجموعة من المصطلحات ذات البريق الخادع مما لا علاقة لها بالمعارف الإلهية، وبعيدة كل البعد عن معرفة الله وعن العلم بأسمائه وصفاته.

وكاتب هذه السطور يعتقد أن جميع هذه العلوم هي علوم عملية لا مجرد معرفة نظرية وحياكة مصطلحات. لقد رأينا خلال هذا العمر القصير والمعرفة القليلة ضمن من يسمون بالعرفاء والعلماء في سائر العلوم، أشخاصاً أقسم بالعرفان والعلم أنهم لم يتأثروا قلبياً بهذه المصطلحات، بل لها تأثير معكوس عليهم.

أيها العزيز، إن العرفان بالله كما تعلم، يحيل القلب إلى محل تتجلى فيه أسماء الله وصفاته وينزل فيه السلطان الحقيقي الذي يمحو آثار التلوث ويطرد التعين:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً...﴾[1].

إن العرفان يجعل القلب أحدياً أحمدياً، فلماذا صار قلبك والهاً بجمالك، وزاد في تلونك وضاعف في تعيناتك وإضافاتك وأبعدك عن الحق تعالى

(١) سورة النمل ـ الآية ٣٤.

وتجليات أسمائه وجعل قلبك موطناً للشيطان فتنظر إلى عباد الله، وإلى أصحاب أبواب الحق، ومظاهر جمال المحبوب، نظرة تحقير وازدراء؟

إنك تتكبر على الله، وتتفرعن في حضرة ذات الله وأسمائه وصفاته.

يا طالب المفاهيم، ويا مضيع الحقائق! تمهل، أنظر ما لديك من المعارف فما الأثر الذي تراه من الحق وصفاته في نفسك؟

أنت أيضاً يا طالب علوم الفقه والحديث وسائر العلوم الشرعية، لا تملك من علمك أكثر من حفنة من الاصطلاحات الخاصة بالأصول والحديث، فإذا لم يضف إليك علمك هذا الذي كله عمل، شيئاً، ولم يستطع إصلاحك، بل أنتج المفاسد الأخلاقية والعملية، فإن علمك أحط من عمل علماء العلوم الأخرى وأتفه، بل أقل من عمل كل العوام.

إن هذه المفاهيم العرضية والمعاني الحرفية والدخول في منازعات لا طائل وراءها ولا علاقة لمعظمها بدين الله ولا بالعلوم حتى تسميها بالثمرة العملية، إن هذه المفاهيم لا تستوجب كل هذا الابتهاج والتكبر. والله يشهد «وكفى بالله شهيداً» أنه لو كانت هذه هي نتيجة العلم، ودون أن تبعد عنك المفاسد الأخلاقية والسلوكية، فإن أحط الأعمال خير من عملك، لأن تلك نتائجها عاجل ومفاسدها الدنيوية والأخروية أقل. وأنت أيها المسكين لا تنال سوى الوزر والوبال، ولا تحصد غير المفاسد الأخلاقية والأعمال القبيحة. وعليه فإن عملك من حيث الاعتبار العلمي ليس في ما يدعو إلى التكبر بل كل ما في الأمر أنك لضيق أفقك العلمي، ما إن تضع اصطلاحاً فوق اصطلاح حتى

تحسب نفسك عالماً وسائر الناس جهلاء، وتفترش أجنحة الملائكة تحت أقدامك وكأنها تطير بك، وتضيق على الناس في المجالس وفي الطرقات. وعلى كل حال يعتبر ضيق أفق الفكر، وانحطاط القابلية وضعفها من أهم عوامل الكبر، ولذلك فمن يتصف بهذا يتأثر بالأمور التي ليست من الكمال، أو ليست من الكمال اللائق تأثراً شديداً، يدفع به إلى العجب والكبر. وكلما كثر حبه للنفس وللدنيا، ازداد تأثره بهذه الأمور.

٢ـ الضعة وقلة الصبر

يركض المرء وراء المفاهيم والمصطلحات فيظن أنها هي الحكمة، وأنها هي التي تصنع العالم والحكيم، فمرة يرى نفسه متصفة بالصفات الواجبة فيقول: «الحكمة هي التشبه بالإله، ومرة يحسب نفسه في زمرة الأنبياء والمرسلين فيقرأ ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾[1] وهو في الحقيقة جاهل بالحكمة، بعيد عنها، وعن خيراتها.

يقول الحكيم المتأله، وفيلسوف الإسلام الكبير، المحقق الداماد رضوان الله عليه: «الحكيم من كان جسده كالرداء له، متى ما شاء خلعه». فانظر إلى ما يقوله هو، وما نقوله نحن. وما أدركه هو من الحكمة، وما أدركناه نحن منها.

إذاً فأنت الذي تتباهى ببضعة اصطلاحات ومفاهيم وتتكبر على الناس، إنما ذلك دليل ضيق نفسك، وقلة صبرك، وعدم أهليتك!

إن من يرى نفسه مرشد الخلائق وهاديهم، ويجلس على كرسي التصوف والتوجيه، يكون أسوأ حالاً من المسعف والمتصوف، وأكثر دلالاً منهما. إنه

---

(١) سورة الجمعة ـ الآية٢.

سرق المصطلحات منهما وأسبغ بعض المظاهر على بضاعته في السوق، وصرف قلوب الناس عن الله ووجهها نحو نفسه، ودفع بذلك الإنسان الطيب النقي السريرة، إلى إساءة الظن بالعلماء وعامة الناس. ولكي تعطي أسواقهم شيئاً من الرواج، يطعمون الناس عن وعي أو بدون وعي بعضاً من مصطلحاتهم الجذابة، ظانين أن ألفاظاً مثل «مجذوب علي» أو «محبوب علي» سوف تمنحهم حقاً حالاً من الانجذاب والحب! نتيجة هذه الأسماء التي يستعملها الدراوشة والمدعون للعرفان.

أنت يا طالب الدنيا وسارق المفاهيم، إن عملك هذا كما تظنه لا يدعو إلى الفخر والتكبر! إن المسكين لقلة صبره وصغر عقله ينخدع حتى بنفسه، فيرى لنفسه مقاماً. وقد امتزج فيه حب النفس وحب الدنيا مع المفاهيم المسروقة والإضافات والاعتبارات، فأصبح مولوداً مشوهاً، إذ نشأ عن تجمعها مزيج عجيب وخليط غريب.

وعلى الرغم من كل هذه العيوب يحسب نفسه مرشد الخلائق وهادي الأمة إلى النجاة ومالك سر الشريعة، بل قد تتجاوز وقاحته الحدود، فيرى نفسه في مقام الولاية الكلية، وهذا ناشئ أيضاً من صغر العقل وضيق القلب والصدر وقلة الاستعداد والأهلية. والأحط والأحقر مكانة هو ذلك الذي يتكبر ويتباهى بالأمور الخارجية، مثل المال والجاه والخدم والحشم والقبيلة، فهذا المسكين بعيد عن الخلق البشري والأدب الإنساني، فارغ اليد من كل العلوم والمعارف.

ولكن بما أن ملابسه من أجود الأصواف، وأباه فلان ابن فلان، فهو يتكبر على الناس، فما أضيق عقله وأشد ظلام قلبه! إنه يقتنع من كل الكمالات

باللباس الجميل، ومن كل جمال بالقبعة والرداء، يرتضي المسكين مقام الحيوانية ويقبل بحظها، ويقتنع من جميع المقامات السامية الإنسانية بالصورة الخالية من كل شكل ومضمون، والفارغة من الحقيقة، ظاناً نفسه بهذا أنه ذو مقام، وفي الواقع إنه على درجة من الضعة ومن عدم اللياقة، بحيث أنه إذا شاهد أحداً أعلى منه بمرتبة واحدة دنيوية يخضع له، كما يخضع العبد لسيده.

لا شك أن من لا هم له سوى الدنيا، لا يكون إلا عبداً للدنيا ولأهلها، وذليلاً لدى من يتزلف ويستذل لديهم.

٣ـ الحسد:

اعلم أن من الممكن أحياناً أن يتكبر فاقد الكمال على واجد الكمال، كأن يتكبر الفقير على الغني، والجاهل على العالم، ولا بد أن نعرف أنه مثلما يكون العجب أحياناً مدخل إلى الكبر، فكذلك هو الحسد، حيث يصبح أحياناً مدخلاً إليه، فالإنسان الذي يفتقر إلى كمال موجود في غيره، يندفع إلى أن يحسده، ثم يصير سبباً لكي يتكبر عليه، ويسعى جهده لإذلاله وإهانته.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الكبر قد يكون في شرار الناس من جنس...»

ثم قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله مر في بعض طرق المدينة وسوداء (امرأة سوداء) تلقط السرقين، فقيل لها تنحي عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت، إن الطريق لمعرض، فهم بها بعض القوم أن يتناولها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: دعوها فإنها جبارة»[1].

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

وقد تظهر هذه الصفة في بعض أهل العلم تحت تبرير أن التواضع أمام الأغنياء غير محمود، وتقول له نفسه الأمارة بالسوء إن التواضع للأغنياء منقصة للإيمان.

إن المسكين لا يميز بين التواضع لغني لأجل غناه، وبين طبع التواضع في الإنسان الذي يكون داعية إلى احترام الناس كلهم، وهذا التواضع محمود للفقراء ومحمود للأغنياء، فلا بد من احترام كل إنسان بما هو خليق به، أم تحقيرك لأهل الجاه والغنى والتكبر عليهم فلا يعني أنك لست متملقاً، بل يعني أنك حسود وتكون في الوقت نفسه على خطأ. ولهذا إذا رأيتهم يحترمونك على غير انتظار وتوقع، تتواضع لهم، وتخفض لهم جناحك.

٤ـ العجب

تؤدي رذيلة العجب إلى رذيلة الكبر المهلكة، وتبعث على ابتلاء الإنسان بمعصية التكبر. فعندما يتوهم الإنسان أن فيه أية صفة من صفات الكمال الحقيقي أو الموهوم تنتابه حالة السرور الممزوجة بالتدلل والغنج وغيرها، فيصاب بداء العجب.

فإذا أعجب المرء بأعماله استصغر أعمال الآخرين، بل اعتبرها دون قيمة واحتقرها، وعندها يجد نفسه أفضل منهم وأعظم، فيقع في شراك التكبر التي سوف يأتي الحديث عن آثارها ومفاسدها إن شاء الله تعالى.

٤ـ آثار ومفاسد الكبر

رذيلة الكبر داء مهلك لدين المرء ودنياه وآخرته، ولها مفاسد وآثار قبيحة جداً، حيث تحرم صاحبها من كل خير وكمال وتورثه المذلة والحقارة في الدنيا والآخرة، وتكون سبيلاً ومدخلاً إلى النار التي سعرها الجبار لغضبه ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1].

اعلم أن رذيلة الكبر صفة قبيحة، وهي بذاتها أحد الأمراض القلبية المهلكة، ويتولد منها مفاسد وآثار أخرى، ولسوف نباشر بذكر المفاسد الواضحة منها، ولا شك أن هناك مفاسد أخرى. فمن هذه الآثار القبيحة:

١ـ الحرمان من الوصول إلى الكمالات

إن هذه الرذيلة تحول دون وصول الإنسان إلى الكمالات الظاهرية والباطنية، والاستمتاع من الحظوظ الدنيوية والأخروية. وذلك لعدة أسباب منها إن المتكبر يمقته الله ويذله، ففي الحديث عن مولانا الصادق عليه السلام:

«يا هشام إياك والكبر على أوليائي والإستطالة بعملك فيمقتك الله، فلا تنفعك بعد مقته دنياك وآخرتك».

٢ـ الحقد والعداوة

يبعث مرض الكبر في النفوس الحقد والعداوة، حيث أن المتكبر لا يحب أن يرى أحداً أفضل منه على الإطلاق.

---

(١) سورة النحل ـ الآية ٢٨.

كما أن هذه الرذيلة تحط من قدر الإنسان في أعين الخلق وتجعله تافهاً، وتحمل الناس على أن يعاملوه بالمثل تحقيراً له، واستهانة به، وهكذا يولد الحقد، وتتفجر العداوة بين المتكبر والناس.

قال صادق آل محمد عليه السلام: «ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة ومَلَكٌ يمسكها، فإذا تكبر قال له: إتضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه، وأصغر الناس في أعين الناس. وإذا تواضع رفعه الله عز وجل. ثم قال انتعش نعشك الله، فلا يزال أصغر الناس في نفسه، وأرفع الناس في أعين الناس»[1].

فيا أيها العزيز، ما يحتوي عليه رأسك من الدماغ، تحتويه رؤوس الآخرين أيضاً. إذا كنت متواضعاً، احترمك الناس قهراً واعتبروك كبيراً، وإذا تكبرت على الناس لم تنل منهم شيئاً من الاحترام. بل إذا استطاعوا أن يذلوك لأذلوك ولم يكترثوا بك. وإن لم يستطيعوا إذلالك، لكنت وضيعاً في قلوبهم، وذليلاً في أعينهم، ولا مقام لك عندهم. افتح قلوب الناس بالتواضع، فإذا أقبلت عليك القلوب ظهرت آثارها عليك. وإن أدبرت تكون آثارها على خلاف رغباتك.

فإذا فرضنا أنك كنت من المبتغين للإحترام والمقام الرفيع، لكان اللازم عليك أن تسلك الطريق الذي يوصلك إلى مرادك وقصدك، إنك لا تكتسب من وراء التكبر نتيجة دنيوية مجدية، بل ستحصد من ورائه نتيجة معكوسة.

---

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

٣ـ المذلة والحقارة

إن رذيلة الكبر توجب المذلة في الآخرة والمسكنة في ذلك العالم، فكما أنك احتقرت الناس وترفعت على عباد الله، وتظاهرت أمامهم بالعظمة والجلال والعزة والاحتشام، كذلك تكون صورة هذا التكبر في الآخرة الهوان، كما ورد في الحديث الشريف عن مولانا الصادق عليه السلام:

«إن المتكبرين يُجعلون في صورة الذر يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»[١].

وجاء في وصاياه صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه:

«إياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله عز وجل فمن نازع الله رداءه قصمه الله، وأذله يوم القيامة»[٢].

ولا أعرف بأن الله تعالى إذا أذل شخصاً ماذا يصنع به؟ وبماذا يبتليه؟ لأن أمور الآخرة تختلف عن أمور الدنيا، يغاير الذل في الآخرة، فالذل فيها يختلف عن الذل والهوان الذي نعرفه!

٤ـ الخروج من رحمة الله

إن الكبر من أخلاق الشياطين الخاصة، والويل لمن يكون وارثاً للشيطان. لأن هذه الصفة كانت أول معصية عصي الله بها فأدت إلى طرد الشيطان من حضرة الله، ولذلك فهو يريد أن يوقع بالإنسان، عارفاً أو عامياً، عالماً أو جاهلاً في مثل هذه الرذيلة، حتى إذا ما لقيه يوم القيامة، شمت به قائلاً:

---

(١) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

(٢) وسائل الشيعة ـ المجلد الحادي عشر ـ أبواب جهاد النفس.

يا ابن آدم، ألم يخبرك الأنبياء بأن التكبر على أبيك قد طردني من حضرة الحق، لقد نزلت عليَّ لعنة الله لأنني احتقرت مقام آدم واستعظمت مقامي، فلماذا أوقعتك نفسك في هذه الرذيلة؟!

وعندئذ يصبح هذا المسكين موضع شماتة أرذل مخلوقات الله وأحطها فضلاً عن ابتلاءاته وعذاباته وندامته وحسرته مما يعجز الكلام عن وصفه.

إن الشيطان لم يتكبر على الباري عز وجل، بل على آدم عليه السلام وهو من مخلوقات الحق، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1].

فاستعظم ـ لعنه الله ـ نفسه واستحقر آدم عليه السلام.

والمتكبر كالشيطان يستصغر بني آدم ويستكبر بنفسه عليهم، وهو أيضاً يعصي أوامر الله، لأنه تعالى قال له: كن متواضعاً مع عبادي.

ولكنه يتكبر ويتعالى عليهم، ومن هنا فهو شريك الشيطان في هذه الرذيلة، وهو من مظاهره بل إنه يجسده ولربما كانت صورته في البرزخ وفي يوم القيامة صورة شيطانية. فإن المقياس في صورة الإنسان في الآخرة هو الملكات الحاصلة للنفس، فليس هناك ما يمنع من أن يكون على صورة الشيطان، أو على صورة نملة صغيرة، فموازين الآخرة تختلف عن موازين الدنيا.

ولا بد من الالتفات إلى أن داء الكبر كلما تأصل في الإنسان وازداد تعاليه على عباد الله تعالى، ازداد بعداً عن جوار الله، وكثرت ذنوبه، لأن الكبر من أهم أسباب الذنوب والمعاصي.

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية١٢.

٥ـ دخول النار

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم»[١] توعد الله سبحانه وتعالى صاحب الكبر بالعذاب والنار، وكان الكبر سبيلاً وباباً للدخول إلى ذلك العذاب الأليم، ففي الحديث الشريف «الكبر مطايا النار»[٢] وحرمت الجنة على من دخله الكبر، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر»[٣].

ولا بد من الالتفات إلى أن أمور الدنيا تختلف كثيراً عن أمور الآخرة، حيث أن نعمها تفوق تصورنا «ولا خطر على قلب بشر»، وكذلك هو عذابها فإنه لا يخطر على بالنا، بل لا يمكننا تصوره. وما أدرانا ما جهنم التي جعلها الله مثوى لكل متكبر فخور فقال عز من قائل: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤] إنها غير جهنم التي أعدت لسائر الناس، ويكفي أن نورد هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «إن في جهم وادياً للمتكبرين يقال له «سقر»، شكا إلى الله عز وجل شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس، فتنفس فأحرق جهنم»[٥].

وهذا الحديث من حيث السند في غاية الاعتبار بل هو كالصحيح.

---

(١) وسائل الشيعة ـ المجلد الحادي عشر ـ أبواب جهاد النفس.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة النحل ـ الآية٢٨.

(٥) أصول الكافي ـ المجلد الثاني ـ كتاب الإيمان والكفر.

٦ـ شدة العذاب في جهنم

أعوذ بالله تعالى من مكان رغم كونه داراً للعذاب يشكو حرارته، فيتنفس فيحرق جهنم من جراء تنفسه.

إننا لا نستطيع أن ندرك شدة حرارة نار الآخرة في هذا العالم، إذ أن أسباب شدة العذاب وضعفه تختلف مع أسباب شدة العذاب الدنيوي وخفتها من جهات عديدة:

١ـ فمن جهة تتبع قوة الإدراك وضعفه، إذ كلما كان المدرك أقوى والإدراك أتم وأنقى، كان إدراك الألم والعذاب أكثر.

٢ـ ومن جهة أخرى تعتمد على اختلاف المواد التي يقوم بها الحس في تقبل الحرارة، لأن المواد تختلف من حيث تقبل الحرارة، فالذهب والحديد مثلاً يتقبلان الحرارة أكثر من الجلد.

٣ـ كما أن لمستوى ارتباط قوة الإدراك بالموضع المقابل للحرارة أثراً في شدة وضعف العذاب. فمثلاً المخ تقبله للحرارة، أقل من العظام ويكون تأثره أشد، لأن قوة الإدراك فيه أكثر.

٤ـ وإن للحرارة نفسها من حيث كمالها ونقصانها دوراً في الشدة والضعف، فالحرارة التي تصل إلى مائة درجة تؤلم أكثر من الحرارة التي تصل إلى درجة خمسين.

٥ـ كما أن مدى ارتباط المادة الحرارية الفاعلة بالمادة بالمتقبلة لها سبب في تخفيف أو تشديد العذاب فمثلاً إذا كانت النار قريبة من اليد كان الاحتراق أخف مما إذا التصقت النار باليد.

جميع هذه الأسباب الخمسة المذكورة تكون في هذه الدنيا في منتهى النقص، وفي الآخرة في منتهى كمال القوة والتمامية.

إن جميع إدراكاتنا في هذا العالم ناقصة وضعيفة ومحجوبة بحجب كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولا تناسبه.

إن أعيننا لا ترى اليوم الملائكة ولا جهنم، وآذاننا لا تسمع الأصوات العجيبة والغريبة التي تصدر من البرزخ وأصحابه، ومن القيامة وأهلها، وحواسنا لا تحس بالحرارة هناك، كل ذلك لأنها ناقصة جميعاً.

إن الآيات والأخبار الواردة عن أهل البيت صلوات الله عليهم مشحونة بذكر هذا الأمر تلويحاً وتصريحاً.

جسم الإنسان لا يتحمل الحرارة في هذا العالم، إذ لو بقي ساعة واحدة في النار الباردة من الدنيا لاستحال إلى رماد. ولكن الله القادر يجعل هذا الجسم يوم القيامة قابلاً للبقاء في نار جهنم التي شهد جبرائيل بأنه لو جيء بذراع واحد من سلاسل جهنم التي طول الواحدة منها سبعون ذراعاً، إلى هذه الدنيا، ووضعت على جبال الدنيا، لذابت من شدة حرارتها دون أن تذوب.

فقابلية جسم الإنسان للحرارة يوم القيامة، لا تقاس بقابليته لها في دار الدنيا.

أما ارتباط النفس بالجسد في هذه الدنيا فضعيف وناقص، ففي هذا العالم يستعصي على النفس أن تظهر فيه بكامل قواها أما الآخرة فهي عالم ظهور النفس. فنسبة النفس إلى الجسد نسبة الفاعلية والخلاقية، كما هو ثابت في محله، وهي أتم مراتب النسبة والارتباط. ونار هذه الدنيا باردة ذاوية وعرضية ومشوبة بمواد خارجية غير خالصة. أما نار جهنم، فنار خالصة لا تشوبها شائبة، وجوهر حي قائم بذاته، ذو إرادة يحرق أهله بإدراك وإرادة، ويشدد الضغط عليهم قدر الإمكان.

ولقد سمعت فيما تقدم ما قاله الصادق المصدق الأمين جبرائيل عن النار. والقرآن الكريم والأخبار الشريفة مليئة بوصفها.

أما نار جهنم والتصاقها بالجسم فلا شبيه له في هذا العالم، ولو تجمعت جميع نيران العالم وأحاطت بإنسان لما أحاطت بغير سطح جسمه. أما نار جهنم فتحيط بالظاهر والباطن، وبالحواس المدركة وما يتعلق بها.

إنها نار تحرق القلب والروح والقوى وتتحد بها بنحو لا نظير له في هذا العالم. فيتبين مما ذكر أن هذا العالم ـ عالم الدنيا ـ لا تتوافر فيه وسائل العذاب بأي شكل من الأشكال، فلا مواده جديرة بالتقبل، ولا مصادره الحرارية تامة الفاعلية، ولا الإدراك تام.

إن النار التي تستطيع أن تحرق جهنم بنفس منها، لا يمكن أن نتصورها ولا أن ندركها، إلا إذا كنا لا سمح الله من المتكبرين، وانتقلنا من هذا العالم إلى الآخرة قبل أن نطهر أنفسنا من هذا الخلق القبيح، حيث نراها رأي العين.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

٥ـ علاج الكبر

إذا أراد المرء أن يعالج نفسه من داء الكبر فعليه باليقظة أولاً، ومن ثم إحراق القلب وتطهيره بنار الندامة. هذه الخطوة الأولى لاستئصال رذيلة الكبر من جذورها. وأما الدواء والعلاج بعد هذه الخطوة فهو على قسمين:

الأول علمي ويكون بالتفكر في حال الإنسان نفسه، وفي مفاسد وآثار الكبر.

والثاني عملي ويكون بالتواضع والعمل خلاف رغبة النفس والشيطان.

قبل أن نتحدث عن علاج رذيلة الكبر العلمي ومن ثم العملي، لا بد من الحديث عن اليقظة، وعن الندامة على تلك الملكة القبيحة، وينبغي أن ينتبه الإنسان ويحذر مكائد النفس وحيلها بشكل دائم، لأنها كثيراً ما تكون قد أعدت فخاً لتوقعه فيه، فمكائد النفس وأحابيلها من الدقة المتناهية، بحيث أن المرء لا يسعه إلا أن يستعين بالله منها ومن مرض الكبر المهلك، ويسارع في علاج هذا الداء القلبي، ليتم استئصاله من النفس الإنسانية، وهذا إنما يتم بأمور وخطوات عديدة من أهمها:

١ـ اليقظة

لابد للإنسان من المجاهدة الخالصة الصادقة، وبها يمكن إصلاح النفس من الرذائل، فإن جميع الصفات النفسانية قابلة للإصلاح، إلا أن الأمر في البداية يتطلب بعض العناء، ولكن ما إن يضع قدمه على طريق الإصلاح حتى يسهل

عليه الأمر، ولكن المهم هو أن يشرع في التفكير في تطهير نفسه وإصلاحها، والاستيقاظ من النوم. فالمرحلة الأولى من مراحل الإنسانية هي «اليقظة» وهي الاستيقاظ من نوم الغفلة، والصحوة من سكر الطبيعة، والإدراك بأن الإنسان مسافر، وأنه لا بد للمسافر من زاد وراحلة.

وزاد الإنسان خصاله، وراحلته ـ في هذه المرحلة الخطيرة والمخيفة، وفي هذا الطريق الضيق الذي هو أحد من السيف وأدق من الشعرة ـ هي همة الرجال وعزمهم. والنور الذي ينير ظلام هذا الطريق هو نور الإيمان والخصال الحميدة.

فإذا تقاعس الإنسان، ووهنت همته أخفق في العبور، وانكب على وجهه في النار، وساوى تراب الذل، وانقلب في هاوية الهلاك، فمن لم يستطع اجتياز هذا الصراط، لا يستطيع اجتياز صراط يوم القيامة أيضاً.

٢ـ الندامة

عندما يكون قلب الإنسان مصاباً بمرض الكبر فهذا يدل على أن إيمانه صوري وناقص، ولذلك فعليه أن يطهر نفسه من هذا الغش، حتى ينضم إلى زمرة السعداء والصالحين. والغش يزول بنار التوبة والندم، وبإدخال النفس في أتون العذاب واللوم، وصهرها في حرارة الندامة والعودة إلى الله.

فعليك أن تعمل في هذا العالم وإلا فإن ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[1] سوف تذيب قلبك.

---

(١) سورة الهمزة ـ الآيتان٦ و٧.

«يجب على الإنسان أن يقوي في قلبه صورة الندامة كي يحترق القلب بمشيئة الله تعالى، وذلك بأن يفكر في الآثار الموحشة للمعاصي وعواقبها ويعمل على تقوية الندامة في قلبه، ويضرم النار في قلبه على غرار «نار الله الموقدة»، ويحرق قلبه في نار الندامة حتى تحترق مع هذه النار جميع المعاصي، وتزول الكدورة والصدأ عن القلب.

وليعلم أنه إذا لم يضرم بنفسه النار (نار الندامة)، ولم يفتح في وجهه باب جهنم هذه التي تكون بذاتها الباب الرئيسي لأبواب الجنة، فإنه عندما ينتقل من هذا العالم، تهيأت له لا محالة في ذلك العالم نار عاتية، وتفتح في وجهه أبواب جهنم، وتوصد في وجهه أبواب الجنة والرحمة»[1].

ولابد من الالتفات إلى أن التطهر في هذه الدنيا سهل يسير، فالتغيرات والتصورات سريعة الوقوع فيها، أما في العالم الآخر فالتغيير يكون بشكل آخر، حيث أن زوال صفة من الصفات النفسانية قد يستغرق قرونا عديدة.

٣ـ العلاج العلمي

بعدما عرفت مفاسد رذيلة الكبر وآثارها، حاول أن تعالج نفسك مشمراً عن ساعد الجد للبحث عن العلاج، واشحذ همتك لتطهير القلب من هذا الدرن، وأزل الغبار والأتربة عن مرآته. فإذا كنت ممن قويت نفوسهم، واتسعت صدورهم ولم يتجذر حب الدنيا في قلبك، ولم يبهرك زبرجها وزخرفها، وكانت عين الإنصاف عندك مفتوحة، فإن ما تقدم من الحديث عن مفاسد هذه الرذيلة خير علاج علمي لك.

---

(١) الأربعون حديثاً ـ حديث التوبة.

وإذا لم تكن قد دخلت هذه المرحلة، ففكر قليلاً في حالك، فلعل قلبك يصحو حيث أنك لم تكن شيئاً في أول أمرك، وكنت في دهور العدم والآباد غير المتناهية، ما هو الأقل من العدم واللاشيء على صفحة الوجود! ثم لما شاءت مشيئة الله أن تظهرك إلى عالم الوجود، فمن جراء قلة قابليتك الناقصة وتفاهتك وضعتك وعدم أهليتك لتقبل الفيض، أخرجك من هيولى العالم (المادة الأولى) التي لا تكون سوى القوة المحضة والضعف الصرف، إلى صورة الجسمية والعنصرية التي هي أخس الموجودات وأحط الكائنات، ومن هناك أخرجك نطفة لو مستها يدك لاستقذرتها وتطهرت منها، ووضعك في منزل ضيق رجس هو خصيتا الأب، وأخرجك من مجرى البول في حال مزرية قبيحة، وأدخلك في رحم الأم من مكان تنفر من ذكر اسمه. وحولك هناك إلى علقة ومضغة، وغذاك بغذاء يزعجك سماع اسمه ويخجلك. ولكن بما أن الجميع هذا هو حالهم وتلك هي بليتهم، زال الخجل «والبلية إذا عمت طابت».

في كل هذه التطورات كنت أرذل الموجودات وأذلها وأحطها، عارياً عن أي إدراك ظاهري وباطني، بريئاً من كل الكمالات. ثم شملتك رحمته وجعلك قابلاً للحياة، فظهرت فيك الحياة رغم كونك في أشد حالات النقص، بحيث إنك أحط من الدودة في أمور حياتك، فزادت برحمته تدريجياً قابليتك على إدارة شؤون حياتك، إلى أن أصبحت جديراً بالظهور في محيط الدنيا، أظهرك في هذه الدنيا من خلال أشد المجاري ضعة، وفي أوطأ الحالات، وأنت أضعف في الكمالات وشؤون الحياة، وأدنى من جميع مواليد الحيوانات الأخرى. وبعد أن منحك بقدرته قواك الظاهرية والباطنية، ما زلت ضعيفاً وتافهاً

بحيث أن أيّاً من قواك ليست تحت تصرفك، فلست بقادر على المحافظة على صحتك، ولا على قواك ولا على حياتك، ولست بقادر على المحافظة على صحتك، ولا على قواك ولا على حياتك، ولست بقادر على الاحتفاظ بشبابك وجمالك. وإذا ما هاجمتك آفة أو انتابك مرض فلست بقادر على دفعهما عنك. وعلى العموم، ليس تحت تصرفك شيء من ذلك. لو جعت يوماً لتنازلت حتى لأكل الجيفة، ولو غلبك العطش لما امتنعت عن شرب أي ماء آسن. وهكذا أنت في شؤونك الأخرى عبد ذليل مسكين لا قدرة لك على شيء. ولو قارنت حظك من الوجود ومن الكمالات بما لسائر الموجودات، لوجدت أنك وكل الكرة الأرضية، بل وكل المنظومة الشمسية، لا قيمة لكم مقابل هذا العالم الجسماني الذي هو أدنى العوالم وأصغرها.

أيها العزيز! إنك لم تر سوى نفسك، والذي رأيته لم تضعه موضع الاعتبار والمقارنة. حاول أن تنظر إلى نفسك وما تملك من شؤون الحياة وزخارف الدنيا وقارنها بمدينتك، وقارن مدينتك بوطنك، ووطنك بسائر الدول في الدنيا التي لم تسمع بأكثر من واحد بالمائة منها، وقارن كل الدول بالكرة الأرضية، والأرض بالمنظومة الشمسية، وبالكرات الواسعة التي تعيش على فتات أشعة الشمس المنيرة، وقارن كل المنظومة الشمسية الخارجة عن محيط فكري وفكرك، بالمنظومات الشمسية الأخرى التي تعد شمسنا وجميع سياراتها، واحدة من سيارات إحدى تلك المنظومات التي لا يمكن أن تقارن شمسنا معها، والتي يقال أن ما اكتشف منها حتى الآن يبلغ عدة ملايين من المنظومات الشمسية التي تكبر أصغر شمس لها شمسنا ملايين المرات وتسطع نوراً أكثر.

هذه كلها من العوالم الجسمانية التي لا يعرفها إلا خالقها. وإن ما اكتشف منها لا يبلغ الجزء الضئيل منها. وكل عوالم الأجسام هذه لا تكون شيئاً بالقياس إلى عالم ما وراء الطبيعة، فهنالك عوالم لا يمكن للعقل البشري أن يتخيلها. هذه شؤون حياتك وحياتي، وهذه حظوظنا ونصيبنا من عالم الوجود. وعندما تشاء إرادة الله أن تتوفاك وتنقلك من هذه الدنيا، فإنه يأمر جميع قواك بالاتجاه نحو الضعف، وجميع حواسك بالتوقف عن العمل، فتختل أجهزة وجودك، ويذهب سمعك وبصرك، وتضمحل قواك وقدرتكن فتصير قطعة جماد تزكم بعد عدة أيام رائحتك العفنة أنوف الناس وتؤذي مشامهم، ويهربون من صورتك وهيئتك، وما أن تمضي أيام آخر حتى تهترئ أعضاؤك وتتفسخ. هذه هي أحوال جسمك، أما أحوال أموالك وثروتك فأمرها معروف.

أما عالم برزخك، فإنك إن انتقلت من هذه الدنيا لا سمح الله قبل أن تصلحه، فالله يعلم كيف تكون صورتك، وكيف تكون أحوالك، إذ أن قوى الإدراك في هذا العالم عاجزة عن أن تسمع أو ترى أو تشم شيئاً من ذلك العالم. إن ما تسمعه عن ظلمة القبر ووحشته وضيقه إنما تقيسه على ما في هذا العالم من ظلمة ووحشة وضيق مع أن هذا القياس وهذه المقارنة باطلة. نسأل الله أن ينجينا مما أعددنا لأنفسنا بأنفسنا!

إن عذاب القبر أنموذج من عذاب الآخرة والمستفاد من بعض الأحاديث أن أيدينا تقصر عن الوصول إلى شفاعة الشفعاء في القبر، فقد قيل لمولانا الإمام الصادق عليه السلام: «إني سمعتك وأنت تقول كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم، قال: صدقتك، كلهم والله في الجنة، قال: قلت: جعلت فداك إن الذنوب

كثيرة كبار. فقال: أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع أو وصي النبي، ولكني والله أتخوف عليكم من البرزخ، قلت: وما البرزخ؟ قال: القبر من حيث موته إلى يوم القيامة»[1].

فيا له من عذاب! إن نشأة الآخرة أشد وأفظع من جميع الحالات السابقة. إنه يوم تبرز فيه الحقائق، وتنكشف فيه السرائر، وتتجسد فيه الأعمال والأخلاق. يوم تصفية الحساب، يوم الذلة في المواقف. تلك هي أحوال يوم القيامة!

أما حال جهنم التي تكون بعد يوم القيامة فأمرها معلوم أيضاً. إنك تسمع أخباراً عن جهنم! إن النار ليست وحدها عذاب جهنم، فلو أن باباً منها انفتح على عينيك وعلى هذا العالم لهلك أهله خوفاً. وكذلك لو انفتح باب آخر على أذنيك، وآخر على خياشيمك، لو أن أياً منها فتح على أهل هذا العالم لهلكوا جميعاً من شدة العذاب.

يقول أحد علماء الآخرة: مثلما أن حرارة جهنم أشد ما تكون، كذلك برودتها أشد ما تكون، والله تعالى قادر على أن يجمع الحرارة والبرودة معاً. هكذا هي نهاية حالك.

إذاً، فالذي أوله عدم غير متناه، وهو منذ أن يضع قدمه في الوجود تكون تطوراته قبيحة وغير جميلة، وكل حالاته مخجلة، وكل من دنياه وبرزخه وآخرته أفجع من الأخرى، بم يتكبر؟ بأي جمال أو كمال يتباهى؟ إن من كان

---

(١) الفروع من الكافي ـ المجلد الثالث ـ كتاب الجنائز.

جهله أكبر وعقله أصغر كان تكبره أكثر، ومن كان علمه أكثر وروحه أكبر وصدره أوسع كان تواضعه أكثر.

٤ـ العلاج العملي

إذا عزمت على إصلاح نفسك فطريقه العملي، أمر يسير مع شيء من المثابرة، وإنه طريق لو اتصفت بهمة الرجالة وحرية الفكر وعلو النظر، فلن تصادفك أية مخاطر.

إن الأسلوب الوحيد للتغلب على النفس الأمارة وقهر الشيطان ولإتباع طريق النجاة، هو العمل بخلاف رغباتهما. فلا يوجد سبيل أفضل لقمع النفس من الاتصاف بصفة التواضع ومن السير وفق سيرة المتواضعين، قال مولى المتقين علي عليه السلام: «ضادوا الكبر بالتواضع».

فحيثما تكن درجة التكبر عندك، ومهما تكن طريقتك في العلم والعمل، اعمل قليلاً بخلاف هوى نفسك، مع الالتفات إلى الملاحظات العلمية اتجاه التكبر، والانتباه إلى النتائج المطلوبة. إذا رغبت نفسك بأن تتصدر المجالس تقدماً على أقرانك، فخالفها واعمل على عكس ما ترغب فيه. وإذا كانت نفسك تأنف من مجالسة الفقراء والمساكين، فمرِّغ أنفها في التراب وجالسهم، وآكلهم ورافقهم في السفر، ومازحهم، وقد تجادلك نفسك فتقول لك، إن لك مقاماً ومنزلة، وإن عليك أن تحافظ على مقامك من أجل ترويج الشريعة والعمل في سبيلها، فمجالستك الفقراء تذهب بمنزلتك من القلوب، وإن المزاح مع من هو دونك يقلل من عظمتك، وجلوسك في ذيل المجلس يحط من هيبتك، فلا تقدر أن تؤدي واجبك الشرعي على خير وجه!

اعلم أن هذه كلها من مكائد الشيطان والنفس الأمارة. ولا بد من أن ينتبه المرء إليها. لأنها كثيراً ما تكون قد أعدت لك فخاً آخر لتوقعك فيه.

وقد يجلس أحدهم ممن يريد التخلص من الكبر في ذيل المجلس بهيئة من يريد أن يقول أن مقامه أرفع من مقامات الحاضرين، ولكنه لتواضعه جلس حيث جلس.

وإذا التبس على الناس الأمر وقدموا عليه من يشك في أفضليته عليه، فإنه (من يهرب من صفة التكبر) يقدم على نفسه من لا يشك في تأخره عنه لكي يزيل ذلك الالتباس بالإيحاء بأن تأخيره في الدخول على المجالس وتقديم الآخرين على نفسه يكون من باب التواضع. هذه ومئات الأمثلة من هذا القبيل هي من مكائد النفس التي تريد للإنسان التكبر والرياء.

وقد يرفض أحدهم التواضع أمام الغني مثلاً، باعتبار أن التواضع أمام الأغنياء غير محمود. ولكن هذا المسكين لا يميز بين التواضع لغني من أجل غناه والتواضع لغير ذلك.

فمرة يتواضع الإنسان مدفوعاً برذيلة حب الدنيا والانجذاب نحو طلب الجاه والمقام، فليس هذا من خلق التواضع في شيء، بل إنه المداهنة والتملق وإنه من الرذائل النفسانية، وصاحبها لا يتواضع للفقراء، إلا إذا طمع فيهم بشيء أو أراد منهم شيئاً.

ومرة أخرى يكون طبع التواضع في الإنسان داعية له إلى احترام الناس والتواضع لهم، فقراء كانوا أم أغنياء، مرموقين كانوا أم مغمورين.

فهذا تواضعه خالص من غير شائبة، وروحه طاهرة مطهرة لم يجتذب قلبه الجاه والمقام. إنه تواضع محمود للفقراء ومحمود للأغنياء، فلا بد من احترام كل إنسان بما هو خليق به.

لقد كان رسول الله ﷺ، ومقام وصيه علي عليه السلام في الدنيا من حيث الرئاسة والمركز أرفع منا جميعاً، ومع ذلك فانظر إلى سيرتهما.

نماذج من تواضع القادة:

النبي الكريم ﷺ الذي كان علمه من الوحي الإلهي، وكانت روحه من العظمة بحيث أنها بمفردها غلبت نفسيات كل البشر، إن هذا النبي قد وضع جميع العادات الجاهلية والأديان تحت قدميه، ونسخ جميع الكتب، واختتم دائرة النبوة بشخصه الكريم، وكان هو سلطان الدنيا والآخرة، والمتصرف في جميع العوالم بإذن الله، ومع ذلك كان تواضعه مع عباد الله أكثر من أي شخص آخر.

كان يكره أن يقوم له أصحابه احتراماً، وإذا دخل مجلساً لم يتصدر، ويتناول الطعام جالساً على الأرض قائلاً: إنني عبد، آكل مثل العبيد وأجلس مجلس العبيد.

لقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام[1] إن رسول الله ﷺ كان يحب أن يركب الحمار من دون سرج، وأن يتناول الطعام مع العبيد على الأرض، وكان يعطي الفقراء بكلتا يديه. كان ذلك الإنسان العظيم يركب الحمار مع غلامه أو غيره، ويجلس على الأرض مع العبيد، وفي سيرته أنه كان يشترك في أعمال المنزل،

(١) بحار الأنوار ج١٦ ـ باب مكارم أخلاق الرسول الأكرم ﷺ.

ويحتلب الأغنام، ويرقع ثيابه، ويخصف نعله بيده، ويطحن مع خادمه ويعجن، ويحمل متاعه بنفسه، ويجالس الفقراء والمساكين، ويأكل معهم. هذه وأمثالها نماذج من سيرة ذلك الإنسان العظيم وتواضعه، مع أنه فضلاً عن مقامه المعنوي كان في أكمل حالات الرئاسة الظاهرية.

وهكذا قد اقتدى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. إذ كانت سيرته من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد عاصرت شخصياً من العلماء، من كانت لهم الرئاسة والمرجعية الدينية كاملة في دولة واحدة، بل ولكل الشيعة في العالم، وكانت سيرتهم تلي سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. منهم، الأستاذ المعظم والفقيه المكرم الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي حيث كانت له رئاسة الشيعة ومرجعيتهم من ١٣٤٠هـ حتى ١٣٥٥هـ .ق. كانت سيرته عجيبة، كان يرافق الخدم في السفر، ويؤاكلهم ويفترش الأرض، ويمازح صغار الطلبة، وخلال أيام مرضه في أواخر حياته، كان يخرج بعد المغرب يتمشى في الشارع وقد لف رأسه بقطعة قماش بسيطة منتعلاً حذاءً بسيطاً من دون أي اهتمام بالمظهر، وكان هذا يزيد من وقعه في القلوب، من دون أن تصاب هيبته بأي اهتزاز أو وهن.

وكان هناك آخرون من علماء قم ممن لم يلتفتوا أبداً إلى هذه التقيدات التي يحيكها الشيطان. كانوا يشترون حاجتهم من السوق بأنفسهم، ويحملون الماء من مخازن المياه إلى بيوتهم، ويشتغلون في منازلهم. وكان صدر المجلس وذيله سواء عندهم.

وكانوا على درجة من التواضع بحيث تبعث على التعجب، ومع ذلك كله كان مقامهم محفوظاً بل كانت منزلتهم تسمو في القلوب أكثر فأكثر.

وعلى أي حال إن صفة النبي الأكرم ﷺ وصفة علي بن أبي طالب عليه السلام لا تقلل من قدر الإنسان إذا اتصف بها.

فيا أيها العزيز! إذا كان الكمال المعنوي يدعو إلى التكبر أو الرئاسة والسلطان، فقد كان الرسول الأعظم ﷺ والإمام علي عليه السلام أرفع شأناً، كما وكانت لهما الرئاسة الحقة، ومع ذلك كانا أشد الناس تواضعاً.

واعلم أن التواضع وليد العلم والمعرفة، والكبر وليد الجهل وانعدام المعرفة، فامسح عن نفسك عار الجهل والانحطاط، واتصف بصفات الأنبياء، واترك صفات الشيطان، ولا تنازع الله في ردائه (الكبرياء) فمن ينازع الحق في ردائه فهو مغلوب ومقهور بغضبه، ويكب على وجهه في النار.

ـ إذا كنت من أهل الإيمان الناقص والصوري، فعليك أن تطهر نفسك من هذا الغش حتى تنضم إلى زمرة السعداء والصالحين.

ـ بعدما عرفت مفاسد الكبر، حاول أن تعالج نفسك مشمراً عن ساعد الجد للبحث عن العلاج، واشحذ همتك لتطهير القلب من هذا الدرن، وأزل الغبار والأتربة عن مرآته.

ـ إن الأسلوب الوحيد للتغلب على النفس الأمارة، وقهر الشيطان، ولإتباع طريق النجاة، هو العمل بخلاف رغباتهما، فلا يوجد سبيل أفضل لقمع النفس من الاتصاف بصفة التواضع والسير وفق مسيرة المتواضعين.

ـ اعمل قليلاً بخلاف هوى نفسك، مع الالتفات إلى الملاحظات العلمية حول التكبر، والانتباه إلى النتائج المطلوبة.

ـ إذا رغبت نفسك بأن تتصدر المجلس تقدماً على أقرانك، فخالفها واعمل على عكس ما ترغب فيه.

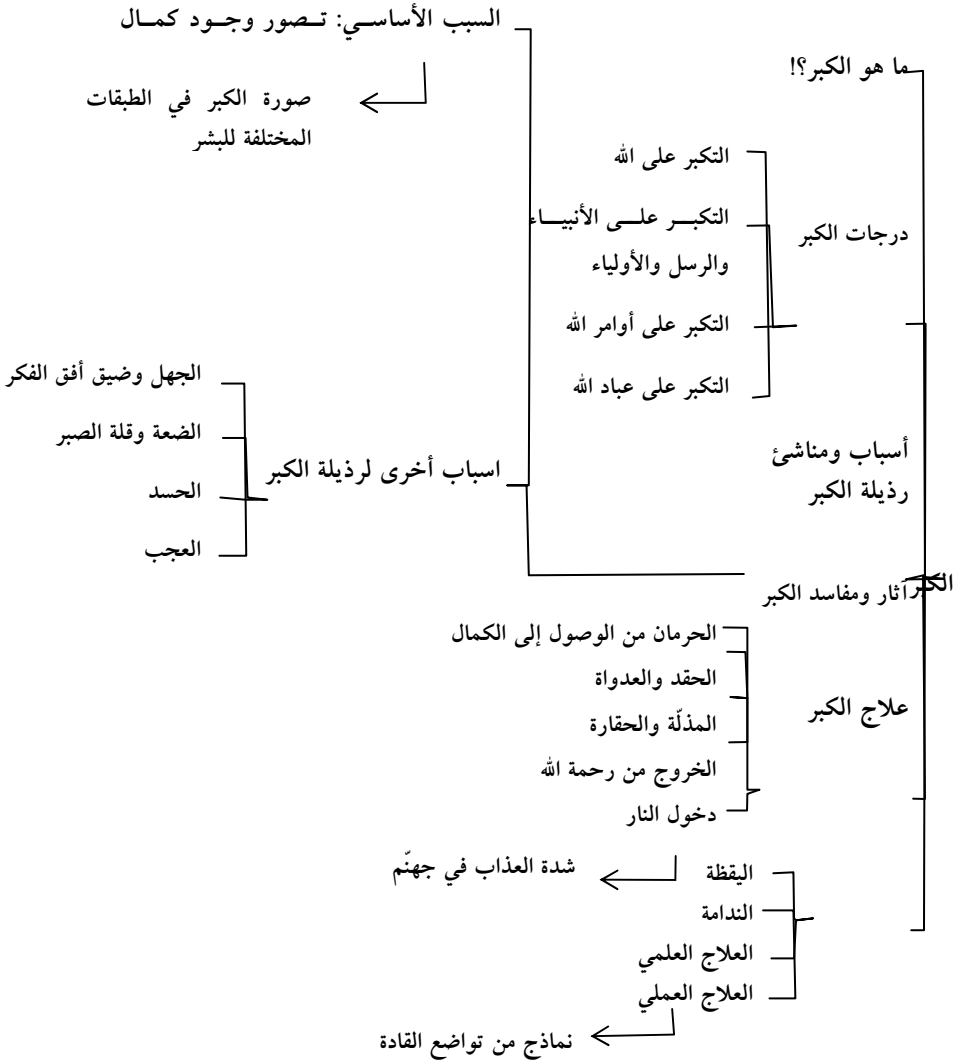
الكبر
ما هو الكبر؟!
السبب الأساسي: تصور وجود كمال
صورة الكبر في الطبقات المختلفة للبشر
درجات الكبر
التكبر على الله
التكبر على الأنبياء والرسل والأولياء
التكبر على أوامر الله
التكبر على عباد الله
أسباب ومناشئ رذيلة الكبر
اسباب أخرى لرذيلة الكبر
الجهل وضيق أفق الفكر
الضعة وقلة الصبر
الحسد
العجب
آثار ومفاسد الكبر
علاج الكبر
الحرمان من الوصول إلى الكمال
الحقد والعدواة
المذلّة والحقارة
الخروج من رحمة الله
دخول النار
اليقظة
شدة العذاب في جهنّم
الندامة
العلاج العلمي
العلاج العملي
نماذج من تواضع القادة

فهرس الكتاب

تمهيد ٢

القسم الأوّل: العُجُب

١ـ معنى العجب ٥

٢ـ درجات العجب ومراتبه ٨

١ـ المرتبة الأولى: ٩

٢ـ المرتبة الثانية ٩

٣ـ المرتبة الثالثة ١٠

٤ـ المرتبة الرابعة ١١

٣ـ منشأ رذيلة العُجُب..... ١٢

٤ـ كيف يغوي الشيطان الإنسان؟ ١٩

٥ـ مفاسد العجب وآثاره ٢١

١ـ استصغار المعاصي، وعدم إصلاح النفس ٢٢

٢ـ احتقار عباد الله تعالى..... ٢٢

٣ـ استحقاق المقت الإلهي..... ٢٣

٤ـ سيطرة الشيطان..... ٢٣

٥ـ الوحدة والوحشة ٢٣

٦ـ عدم قبول الأعمال. ٢٤

٧ـ داء الرياء. ٢٤

٨ـ رذيلة الكبر. ٢٥

٩ـ الاستغناء عن الحق تعالى. ٢٥

٦ـ علاج العجب ٢٧

١ـ الاستعاذة بالله تبارك و تعالى ٢٧

٢ـ معرفة مفاسد وآثار العجب ٢٨

٣ـ حسن الظن بالآخرين ٢٩

٤ـ رؤية النفس مقصرة ٣٠

القسم الثاني: الكبر

١ـ ما هو الكبر؟ ٣٦

٢ـ درجات الكبر ٣٨

١ـ التكبر على الله تعالى: ٣٩

٢ـ التكبر على الأنبياء والرسل والأولياء صلوات الله عليهم: ٣٩

٣ـ التكبر على أوامر الله تعالى: ٣٩

٤ـ التكبر على عباد الله تعالى: ٤٠

٣. أسباب ومناشئ رذيلة الكبر ٤٢
ـ السبب الأساسي ٤٢
ـ صورة الكبر في الطبقات المختلفة للبشر ٤٢
١ـ عند علماء العرفان. ٤٢
٢ـ عند الحكماء ٤٣
٣ـ عند مدعي الإرشاد والتصوف وتهذيب الباطن. ٤٤
٤ـ عند علماء الفقه، وطلابه. ٤٤
٥ـ عند علماء العلوم الأخرى. ٤٥
٦ـ عند أهل العبادة ٤٥
ـ أسباب أخرى لرذيلة الكبر ٤٨
١ـ الجهل، وضيق أفق الفكر. ٤٨
٢ـ الضعة وقلة الصبر ٥١
٣ـ الحسد: ٥٣
٤ـ العجب ٥٤
٤ـ آثار ومفاسد الكبر ٥٥
١ـ الحرمان من الوصول إلى الكمالات ٥٥
٢ـ الحقد والعداوة ٥٥

٣ـ المذلة والحقارة..... ٥٧

٤ـ الخروج من رحمة الله ٥٧

٥ـ دخول النار..... ٥٩

٦ـ شدة العذاب في جهنم ٦٠

٥ـ علاج الكبر ٦٣

١ـ اليقظة ٦٣

٢ـ الندامة ٦٤

٣ـ العلاج العلمي..... ٦٥

٤ـ العلاج العملي..... ٧٠

نماذج من تواضع القادة:..... ٧٢

فهرس الكتاب ٧٦